قلوب الشياطين

بسم الله الرحمن الرحيم

١- طبيب الليل

منتصف يناير ١٩٤٣

كان يسير في خطي سريعة ثابتة غير مبال بالصقيع الذي يحف ياقة سترته السوداء الانيقة ورابطة عنقه التي تطايرت علي كتفه ...كان يخترق الظلمات في برود شديد ببنيان جسمه القوى وطوله الفارع ممسكا في يده بحقيبة سوداء فاخرة مادا بصره للأمام متطلعا نهاية الطريق.

كانت الظلمة حالكة عندما كان يسير بين الزراعات قاطعا شوطا كبيرا من السير وكان الظلمة تزداد قتامة كلما مر بإحدى القرى فالساعة تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل والقري المصرية في الأربعينات لم تكن بعد قد رأت اختراع توماس اديسون المصباح الكهربي . كان عواء الذئاب يأتي في رعب شديد من مكان ما وسط الزراعات .... وهو يواصل سيره.

كانت غايته قرية " الدماشطة " أو الدمشطة حسب النطق الدارج لها وهو في سبيله إليها لم يكن هناك ما يمنعه من الوصول حتى الذئاب.

كان يواصل سيرة وملامحه الجامدة ونظراته الحادة تتحدى كل ما يواجه الذئاب .. الصقيع .. الظلام الحالك .. طول المسافة .. كل شئ .. كل شئ يمنعه من الوصول للقرية.

كان يجب أن يصل قبيل الفجر قبل أن يحل الضوء وتفترش الأرض الظلال !!

****

وفي قرية " الدمشطة" وهي إحدى قرى محافظة الغربية كان سكان القرية وهم مجموعة من الفلاحين البسطاء قد صلوا العشاء ثم عادوا لبيوتهم المبنية من الطين وأطلقوا نفخة قوية من أفواههم أطفأوا بها " لمبة الجاز" ثم غرقوا في سبات عميق.

" لمبة جاز" واحدة لم ينفخ صاحبها نارها منزل " محمد المصري" الفلاح الشاب البسيط الذي استدعي " القابلة" منذ اكثر من ساعتين لتوقف صراخ زوجته التي اوشكت علي الوضع ولكن القابلة ما كانت لتصنع شئ.

وصرخات الزوجة تتعالي وتتعالي بينما جلس محمد المصري في أحد الأركان يتمتم ببعض الآيات القرآنية وقد ادي جلوسه في هذا الركن امام " لمبة الجاز" الي انعكاس ظل كبير له علي الحائط بدا وكأنه عملاق بينما كانت أمه تسير كثيرا لداخل وخارج الغرفة بإناء معدني به ماء ساخن حاملة اياه بقطعة من القماش.. كانت الأم تكرر هذا المشهد كثيرا تساعدها في ذلك ابنتها سعدية ذات الثامنة عشر والذين يقيمون جميعا في هذه الدار.

وفي كل مرة تسأل الأم القابلة:

- كيف الحال يا أم سعيد؟

القابلة :

– علي وشك ... علي وشك.

ثم تجلس أم محمد الي جوار ابنها وقد أراحت خدها فوق يدها.

****

كان يواصل سيره في إصرار وعناد شديدين وبنفس هيئته التي بدأ بها سيره ، جمود في ملامحه بالرغم من وسامته . حدة في عينيه . قوة في تحمله للصقيع الشديد . شجاعة في تحديه للظلام والذئاب.

كان يلتهم الطرقات في شراهة ويقطع المسافات الطويلة في سرعة بخطواته السريعة الثابتة..

مر أمام العديد من القرى مر في المساحات الشاسعة .. مر فوق زراعات فحطم بعض النباتات تحت قدميه ومر بين زراعات فداعبت أوراقها وجنتيه وهو يسير حاملا حقيبته السوداء ..كمسئول دبلوماسي في مهمة وطنية.

****

وفي منزل محمد المصرى كان الوضع كما تركناه.. صرخات من زوجته وقلق من أمه وبعض كلمات من القابلة ترفع بها الحالة المعنوية للموجودين.. والصرخات تتعالي من الزوجة وقد شحب وجهها وتساقطت قطرات العرق عليه وتناثرت خصلات شعرها كما لو تكن مجنونة !!

بينما كان " محمد المصري " يثب من جلسته مع كل صرخة من زوجته وهو يقول للقابلة:

– إفعلي شيئا ياخالة أم سعيد.

والقابلة تردد:

– ها هي قد أوشكت لا تخشي شيئا.

محمد المصري:

– يا خالة .. ثلاث ساعات مضت وأنتي تقولي قد أوشكت .. قد أوشكت دون شئ !!

القابلة:

– كن مع الله

طرق الرجل كفيه ثم قال :

– ونعم بالله.

****

كان يعبر كوبرى خشبي صغير فوق إحدى الترع عندما ارتسمت علي شفتيه ابتسامة وهو يرى عن بعد قرية " الدمشطة ". توقف للحظات ألقي خلالها نظرة كاشفة علي أركان القرية التي كانت تبدو في ذلك الظلام كمبني كبير مهجور . ثم سار نحو القرية بنفس الخطوات وعندما دخل القرية .. لم ينس أن يعدل من وضع رابطة عنقة.

راح يتطلع يمينا ويسارا في كل ارجاء القرية .. بيوت متلاصقة مبنية من الطين .. طرق صغيرة .. ثم صف آخر متلاصق من المنازل معظمها ذى طابق واحد وبعضها ذي طابقين ثم مبني من طابق واحد عليه مأذنة طولها متر واحد يعلوها شئ من البلاستيك علي هيئة نصف دائرة يبدو وكأنه هلال . ثم يواصل سيره علي اليمين منزل كبير جداً مكون من طابقين واجهته مطلية باللون الأصفر واضح أنه بيت العمدة إلي جواره ثلاث نخلات متشعبات من جذع واحد ثم صفوف أخرى وأخرى من منازل متلاصقة متشابهة بينهم طرقات صغيرة تؤدي الي صفوف أخرى من منازل لها نفس الهيئة .. وأخيراً فهي ليست إلا ثمة قرية مصرية في الأربعينات وقت أن كانت المدن منسية.

كان يسير عندما إلتقطت إذنه صوت صراخات..

كانت زوجة محمد المصري تواصل إطلاق سرينتها وإلي جوارها القابلة تجفف سيول العرق عن وجهها وهي تقول:

– اصبري يا ابنتي .. فرج الله قريب.

وبينما كان محمد المصري جالسا علي نفس هيئته وإلي جواره أمه تهون عليه قائلة له :

– لا تخش شيئا يا بني.

– إنها لا تكف عن الصراخ يا أمي.

– وهل توجد إمرأة تلد بدون صراخ ؟!

هز محمد المصري رأسه ثم تطلع للأرض واضعا كفيه فوق مؤخرة رأسه وزوجته لا تزال تصرخ.

محمد المصري محدثا نفسه بصوت مسموع:

– قال لنا العمدة أن طبيب الوحدة الصحية الجديد سيصل اليوم .. سألت دهشان عنه فقال أنه لم يصل بعد .

أمه :

– وماذا عساه أن يفعل الطبيب؟

– لا أدرى ولكنه سوف يكون أفضل

سمعت القابلة العبارة الأخيرة ولكنها تلاشتها تماما وهي تقول:

– دائما ما تكون الولادة الأولي متعسرة.

بينما كانت سعدية أخت محمد المصرى تستمع لهذه الحوارات وقد شحب وجهها وامتلأ خوفاً وقلقاً والزوجة تواصل الصراخ الممزوج بالبكاء والعويل:

– انقذوني .... أكاد أموت ... أ..كاد ... أأأأ ... مووت.

وهنا هبت أم " محمد المصري " من مكانها وأمسكت بيد زوجة إبنها قائلة:

– لا تخافي يا ابنتي إن الله يجعل بعد الشدة فرج.

والزوجة تواصل الصراخ وهنا قام محمد المصري مسرعا نحو الباب قائلا:

– سأذهب للوحدة الصحية أسأل عن الطبيب.

واقترب من الباب الخشبي وحمل " جوال أرز " صغير من أمامه كان يوصد به الباب وما أن فتح الباب وقبل أن يخطو خطوة واحدة للخارج حتى وجده واقفا امامه.

ظهر الذهول والارتباك علي وجه محمد المصرى للحظات ثم قال وهو يحدق في وجه الرجل الغريب :

– من أنت؟!

– أنا طبيب الوحدة الصحية .. وصلت في التو وبينما كنت أسير إذ بصوت صراخ عندكم إستدعاني علي الفور.

تهلل وجه محمد المصري وأفسح الطريق له قائلاً:

– تفضل .. تفضل بالدخول يا دكتور فلقد كنت في طريقي إليك .. فزوجتي توشك علي الوضع ولكن حالتها متعسرة.

دخل الطبيب ساحة الدار ولكنه توقف فجأة بحدة وتطلع الي الأمام نحو الحجرة المضاءة وقال:

– حسنا ولكن هذا الضوء الشديد قد يصيب المولود فور ولادته بحساسية في عينيه.

– هل أزيح لمبة الجاز عن الحجرة ؟

– نعم.

وهنا حملت أم محمد المصري اللمبة وسارت بها إلي خارج الحجرة .

****

ما تبقي من الكلاب أيقنوا أنهم لو ظلوا علي كراهيتهم فسيكون الفناء مصيرهم ...

إذا فليس أمامهم سوى الحب ولكن من أين لهم بالحب وهم بلا قلوب.

****

ومع صراخ الطفل الصغير توقفت زوجة " محمد المصري " عن الصراخ وارتسمت علي شفتيها إبتسامة يملؤها الآلم بينما أطلقت " سعدية " زغرودة قوية وهب محمد المصري قائلاً :

– الله اكبر ... الله اكبر تسلم إيدك يا دكتور.

اندفعت أم محمد المصري لداخل الحجرة حاملة لمبة " الجاز " وهنا صرخ الطبيب بشدة أفزعت من حوله قائلاً :

– أخرجوها بسرعة.

ارتبكت السيدة وتوارت للخلف وابنها يجذبها للوراء قائلاً لها:

– أخرجي يا أمي ... حتى لا يصيب الضوء عين الطفل بحساسية.

أخذ محمد المصري اللمبة ووراها في حجرة جانبية وعاد مسرعا مع أمه التي قالت :

– أهو ذكرا أم أنثى ؟

القابلة بنشوة :

– ذكراً ... ذكراً.

محمد المصري :

– صباحك لبن يا دكتور ..

وفي برود شديد راح الدكتور يلملم أدواته ووضعها في حقيبته السوداء ثم انتصب واقفا وعندما أرادت أم محمد المصري أن تقبله شبت علي قدميها ولكنها لم تصل لرأسه كما أنه لم ينحنى إليها فقالت :

– يا وجه السعد والسعادة دعنى أقبلك.

لم ينحنى لها أيضا وبدا وكأنه لم يسمع شيئا وعبارات الثناء تنهال عليه إلي أن سأله محمد المصري قائلاً :

– ما اسمك يا دكتور ؟ حتى أطلقه علي ابني.

كان يسير خارجا نحو الباب عندما قال :

– نعيم .. دكتور نعيم .

وعندما خرج واصل سيره في الظلام ثم تطلع إلي السماء وقال :

– يبدو أن مهمتي سوف تبدأ الأن !!

كان يطرق باب الوحدة الصحية بشدة بالرغم من رؤيته للقفل الضخم المرصع علي هذا الباب .. ولكنه كان يعي أن هناك من سيهرول إليه عندما يسمع تلك الطرقات .

كان يطرق بيده اليمنى بقوة بكل برود بلا كلل بلا ملل ممسكاً حقيبته السوداء بيده اليسرى .. ناصباً طوله الفارع أمام الباب ... ما يقرب من ربع الساعة وهو يواصل طرقة علي الباب في الظلام الدامس والصقيع ... كل علي استعداد أن يواصل طرقه طيلة ما تبقي له من عمره ولكن ذلك الرجل الذي أتاه مسرعا من المنزل المجاور قد أحال دون ذلك والرجل يقول وهو يخرج مفتاحا من جيبه ويشرع في فتح "القفل" :

– مرحباً يا دكتور " كمال " ... مرحبا يا دكتور " كمال ".

تطلع الطبيب نحو الرجل وقال :

– من أنت ؟!

– أنا دهشان " تومرجي الوحدة الصحية ... وأنت الطبيب القادم من القاهرة أليس كذلك

تلاشي الطبيب سؤاله بسؤال بارد قائلاً :

– هل عملت بإحدى المستشفيات من قبل؟!

– لا.

– هل خدمت بإحدى العيادات الخاصة أو الوحدات الصحية ؟!

– لا

الطبيب :

– إذن من أين لك بالخبرة الطبية؟!

الرجل في بلاهة وهو يفتح الباب :

– ليس لدى أية خبرة . كل ما هنالك أن العمدة قد أخبرني بأني سوف أصبحا مساعدا للطبيب الجديد الذي سوف يأتي للوحدة الصحية اليوم.

فتح الباب فدخل الطبيب وسط الظلام يسبقه " دهشان " الذي قام بفتح نافذة جعلت للحجرة ضوء خافت كشف عن باب لحجرة مجاورة.

الطبيب:

– ما هذه الحجرة؟!

– إنها حجرة الفحص...

– بل أسألك عن الحجرة الأخرى !

– إنها حجرة نومك لقد أعددتها لك فالوحدة مكونة من حجرتين أحدهما خاصة بك والأخرى ....

ثم تعثر دهشان ارضا ولكنه قام سريعا ... وعندما قام لم يجد الطبيب.

جحظت عينا دهشان وحك مؤخرة رأسه وقال :

– بسم الله الرحمن الرحيم .. أين أنت يا دكتور " كمال " ؟! .. دكتور كمال أين أأ ...

قاطعة الطبيب قائلاً:

– أنا هنا بداخل الغرفة .

اتجه " دهشان " نحو الغرفة قائلا ببلاهة شديدة وهو يضحك :

– ظننتك اختفيت يا دكتور " كمال "

– لم اختفي .. واسمي دكتور " نعيم "

– عفوا يا سيدى لقد اخبرني العمدة بأن طبيب الوحدة الصحية الجديد يدعي " كمال " !!

إتجه الطبيب نحو السرير وقال بعدما أراح ظهره للوراء ومد قدميه فتخطت حدود السرير الصغير:

– إسمي نعيم .. أخبر العمدة بذلك في الصباح والآن اغلق النافذة واخرج فأنا أشعر بإرهاق شديد وأرغب في النوم.

أنسحب دهشان للخارج وهو يقول:

– كما تشاء يا دكتور كمال.

– وحذار عليك أن توقظني في الصباح حتى أستيقظ وحدي.

– حسناً يا دكتور كمال.

صارخاً :

– قلت إسمي " نعيم " أيها المعتوه.

– حسنا ... حسناً يا دكتور " نعيم "

– وتذكر ألا توقظني حتى أستيقظ وحدى.

خرج دهشان فجلس د " نعيم " علي السرير وثبت حدقتيه للأمام بشدة.

****

إنهم في أشد الحاجة للحب ... ولكن كيف وهم بلا قلوب.

****

٢– دكتور نعيم :

ومع صياح الديك استيقظت القرية رجالاً ونساءاً وأطفالاً وشيوخاً ومع نداء المؤذن ذهب معظمهم لصلاة الفجر .. بعدها ساروا لأعمالهم في حركة روتينية محفوظة يؤدونها كل يوم ...

ومع إشراقة يوم ريفي جديد كان بيت العمدة قد فتحت أبوابه ونوافذه ودبت الحركة فيه فاستيقظ العمدة واستيقظت زوجته كذلك ابنته " سهى " ذات الواحد وعشرون ربيعا والتي تعد الساعد الأيمن لأبيها. كذلك فعل ابن العمدة الأكبر الفاشل " رشاد" ... وبدا الخدم والحرس يسيرون داخل البيت الكبير .. البعض يقوم بعملية الطهي والبعض بالتنظيف والبعض الآخر يحمل المياه من الترعة .. وأخرون يسيرون بلا هدف بلا عمل... إنه بيت العمده. وكالعادة جلست " سهى " في حجرتها تتصفح الكتب الجامعية في نهم شديد بينما كان " رشاد " الفاشل يمارس ساديته اللعينة في ضرب الخدم والصراخ في وجه الخفر وترويع النساء . كانت " سهى " تسمع صراخات أخيها فترفع عينها عن الكتاب قليلا وتحرك رأسها يمينا ويسارا ثم لا تلبث إلا أن تعيدهما مرة أخرى فلا فائدة من نصح ذلك المخلوق.

ومن بعيد كان " أبو الأخبار " – وهو لقب لأحد رجال القرية يأتي بالأخبار الجديدة دائما ويذيعها في القرية – يأتي مسرعا نحو بيت العمدة حافى القدمين قائلا بصوت جهوري :

– يا بلد ... يا باااالااد .. يا بلد حكيم الوحدة الصحيحة وصل ومحمد المصري خلف ولد .. يا بلد .. يا بالااد .. وصل حكيم الوحدة الصحية أمس ومحمد المصري خلف ولد ... يا باااااااااااالااااااااد ..

(ثم يكرر عبارته مرات ومرات) إلي أن وصل لبيت العمدة فدخل مندفعا قائلاً :

– يا حضرة العمدة .. يا حضرة العمدة حكيم الوحدة الصحية وصل يا حضرة العمدة.

كان العمدة يهبط بعض درجات السلم عندما صرخ قائلاً لأبو الأخبار:

– أفقدك الله نطقك أيها الثرثار .. ألم أخبرك من قبل أنه كلما جد جديد في القرية يجب أن تخبرني به أولاً.

أبو الاخبار ببلاهة:

– نعم أخبرتني .. وهذا ما فعلته جئت لأخبرك قبل الآخرين.

العمدة وهو يضغط علي أسنانه بغيظ :

– كيف وانت قادم كقطار لا يكف نفيره عن الإنطلاق؟

ثم قال العمدة مقلداً أبو الأخبار :

– يا حضرة العمدة يا حضرة العمدة .. هيا أخبرني ماذا جد في القرية ؟

هدأ أبو الأخبار ثم قال :

– لقد وصل حكيم الوحدة الصحية.

– هل رأيته الآن وهو قادم ؟

– لا لم أراه فلقد وصل أمس في منتصف الليل.

– كيف عرفت إذن ؟!

– كنت أتناقش مع دهشان في أمر ما حينما قال لي أخفض صوتك حتى لا تزعج دكتور نعيم

– إسمه كمال أيها الأبله .

– لقد أخبرني دهشان بأن اسمه نعيم .

العمدة بارتياح:

– أخيراً شعرت وزارة الصحة بأن هناك قرية بها وحدة صحية بلا طبيب

– إن القرية كلها سعيدة

– حسناً ... حسناً وهل أنجبت زوجة محمد المصري ولداً ؟

– نعم وقد اختاروا له اسم نعيم .. ولكن كيف عرفت ذلك ؟!

العمدة بحدة :

– ألست العمدة وأعرف كل ما يدور فيها.

– نعم . نعم أنت العمدة ولكنني خشيت أن يكون هناك نداً لي ينقل لك الأخبار.

****

وفي مكان متطرف قليلاً كانت سعدية أخت محمد المصري تجلس إلي جوار " رشاد " إبن العمدة الذي راح يداعب الرمال بعصا صغيرة في يده بلا مبالاة مما تقول سعدية :

– مرت عشرة أيام ولم تفعل شيئا .. إلي متى سأنتظرك لقد نفذ صبرى ولا أستطيع أن احمل هذا السر وحدي اكثر من ذلك .. ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ؟ قلت لي انتظرى أسبوعا حتى أخبر والدى ومر الأسبوع ولم تفعل شيئاً.

هب رشاد من جلسته في حركة غليظة وقال بصوت بهائمي :

– وماذا عساني أن أفعل ؟!

– تخبر والدك برغبتك في الزواج مني.

– لا استطيع .... لا استطيع.

– لما ؟

تلعثم رشاد في الحديث وهو يبحث عن مبرر معقول ثم قال:

– لأن اختي " سهى " في السنة النهائية من دراستها الجامعية وأبي يرفض أي شئ من شأنه أن يشوش عليها .

– أنت كاذب .

هاج رشاد قائلاً :

– كيف تنعتينني بالكذب أيتها الملعونة.

– حسنا اختك " سهى " صديقتي وسوف أخبرها بالأمر لتقنع والدك.

رشاد مفزوعاً.

– ماذا..!! حذار عليكي أن تخبري أي شخص بما حدث ولسوف أتدبر الأمر.أعلم أنك تحبينني ولكن :

– ولكن ماذا؟

– لا شئ ... لا شئ.

****

وفي الوحدة الصحية كانت هناك سيدة تحمل طفلاً صغيراً تصرخ في وجه دهشان قائلة:

– إن الطفل مريض جداً ولا أستطيع الإنتظار.

دهشان:

– أعلم ذلك ولكن دكتور " نعيم " لم يستيقظ من نومه بعد.

– لا شأن لي بذلك . أنا أريد طبيب الوحدة الصحية.

دهشان بغباء:

– مااا الدكتور " نعيم " هو طبيب الوحدة الصحية ولكنه نائم .

– حسناً أيقظه.

– يا أم حسين لا أستطيع لقد منعني من إيقاظه منعاً باتاً حتى يستيقظ وحده.

وضعت السيدة ابنها علي المكتب المعدني المجاور لها وأمسكت برقبة دهشان صارخة :

– لو لم توقظه من مماته سأدخل أنا وأفعل.

بدا الرعب علي دهشان والمرأة تضغط علي رقبته فقال:

– حسناً ... حسناً ... سأفعل ... سأفعل.

دخل دهشان الحجرة المجاورة دون أن يطرق بابها فوجد الدكتور نعيم جالساً علي السرير وقبل أن يخبره بشئ بادره " د. نعيم " قائلاً ببرود شديد وهو يرمي حدقتيه نحوه:

– أطرد هذه المرأة الغجرية من هنا.

دهشان بصوت منخفض:

– إنها زوجة يوسف أأأ...

بنفس البرود :

– إن لم تطردها سأقتلها

– إن ابنها ....

د. " نعيم " بحدة :

– إن لم تطردها سأقتلكم جميعاً.

قفز قلب دهشان إلي حلقة من العبارة الأخيرة وتراجع للخلف وأغلق باب الغرفة خلفه.

****

وفي الأرض الزراعية التي يعمل بها محمد المصري كانت أخته سعدية تقترب منه حاملة الطعام عندما بادرها قائلاً:

– لماذا تأخرتي يا سعدية ؟ لقد مزق الجوع بطني.

سعدية بعيون حزينة :

– لانني كنت أعد الطعام وحدي .

أخذ " محمد المصري " يقذف الطعام الي فمه ويمضغه في شراسه ومع ذلك كان يقول :

– وأين ذهبت أمك؟

– إنها تجلس الي جوار أم نعيم

ضحك " المصري " ببلاهة قائلاً :

– وكيف أحوال نعيم ؟

سعدية بهدوء:

– حسنة.

– وأمه ؟

– بخير.

انتبه " محمد المصري " لهدوء أخته فقال وهو لا يزال يدفع الطعام الي ثغرة الكبير:

– ماذا أصابك يا سعيدة ؟

– لا شئ .... لا شئ.

توقف " المصري" عن الطعام وقال:

– كيف لا شئ ... لقد اخبرتني أمك أن أحوالك لم تعد طبيعية منذ عشرة أيام مضت ولكنني لم أنتبه.

وعلي الجانب الاخر من الترعة كان هناك شخص ما يمتطي حمارا يلوح بيده لهم قائلا بصوت مرتفع :

– يا محمد يا مصري .. ألف مبروك يا محمد يا مصري.

هب " محمد المصري" من جلسته وأشار للرجل :

– الله يبارك فيك يابا الحاج ابراهيم .. اتفضل

– بالهنا والشفا .. سبقتك .... السلام عليكم

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

ثم واصل الرجل طريقه وواصل محمد المصري طعامه

****

وأمام بيت العمدة كانت أم الطفل المريض تتشاجر مع أحد الخفر وقد آثارت زوبعة من الصراخ وإلي جوارها ثلاثة من النساء جئن يساندونها في مهمتها.

الخفير للمرأة :

– ماذا تريدين؟

– اريد مقابلة العمدة أو الست " سهى "

– لماذا؟!

– ابني مريض .. والطبيب يرفض علاجه.

صوت العمدة من الداخل:

– دعها تدخل يا " علي "

دخلت المرأة واقتربت من العمدة وابنته " سهى"

العمدة بهدوء:

– ولماذا رفض علاجه ؟

السيدة :

– لا أدري

سهى بحكمة:

– كيف هذا .. هل يوجد طبيب يرفض معالجة مرضاه.. كيف وقد أقسم علي المحافظة علي صحة مرضاه .

بدا ان السيدة لم تفهم شيئا ولكنها قالت:

– عندما ذهبنا للوحدة الصحية قال لنا دهشان ان الطبيب نائم .

العمدة بحدة :

– ولماذا لم يوقظه ؟!

السيدة :

– حاول دهشان ذلك ولكن الطبيب رفض .

سهى بذهول:

– كيف؟!.. كيف؟! أي طبيب هذا يا أبي .. هيا نذهب إليه ونعرفه أن سيد القوم خادمهم فهو لم يأتي الي هنا إلا ليكون في خدمة القرية وأهلها.

****

وفي الوحدة الصحية انتفض جسد دهشان وهو يرى أربعة نساء إحداهن أم الطفل المريض يسبقهن العمدة وابنته سهى مقبلين نحوه .....

دهشان وهو علي باب الوحدة الصحية في استقبال العمدة :

– مرحبا يا عمدة ... مرحبا يا سهي هانم

دخل العمدة الوحدة الصحية وطرق المكتب المعدني بعصاه وقال بحدة :

– أين الدكتور "كمال" ؟

دهشان بخوف :

– إنه نائم

– أعرف ذلك .. أدخل واخبره ان العمدة يريد مقابلته

دهشان بارتباك:

– ولكن ... ولكن ....

العمدة صارخاً:

– فلتفعل ما أمرتك به.

ارتبك دهشان ثم قال :

– حسنا ... حسناً.

دخل دهشان الحجرة الخاصة بالدكتور " نعيم " فوجده لا يزال جالسا علي نفس هيئته

دهشان :

– العمدة يريد ....

قاطعه دكتور " نعيم " ببرود :

– ألم أحذرك بألا تزعجني ؟!

دهشان بحيرة شديدة:

– نعم أخبرتني ولكنه العمدة ..

الطبيب صارخاً:

– أخبره بأن الدكتور " نعيم " لم يستيقظ من نومه بعد.

وهنا أقتحم العمدة الغرفة وتطلع الي وجه د. نعيم قليلا ثم قال له :

– كيف تتهرب من المرضي بحجة حاجتك للنوم أيها الطبيب؟!

نظر دكتور " نعيم " الي العمدة وقال وهو لا يزال جالساً :

– لو سمحت أيها العمدة لا أريد ان يزعجني أحد.

وهنا ثار العمدة قائلاً :

– ألا تدري أنك تتحدث مع العمدة .. قف مكانك وحدثني بإحترام .

ببرود دون أن يقف:

– أنا اتحدث باحترام ولا أريد ازعاجا من احد .

جحظت عينا العمدة وتوقفت الكلمات في حلقة مع دخول ابنته " سهى " قائلة بأدب جمّ احترام شديد :

– لو سمحت يا دكتور " كمال " اريد أن أعرف ماهية المهمة التي اسندتها لك وزارة الصحة هنا ؟

حدق الطبيب في عينيها للحظات ثم قال :

– أولاً .. إسمي دكتور " نعيم " وليس دكتور " كمال "

العمدة:

– ولكن الإشارة التي أرسلتها وزارة الصحة لنا أفادت بأن الطبيب القادم إسمه " كمال عز الدين"

ببرود:

– اسمي دكتور " نعيم "

سهى :

– حسنا ... حسنا لن يمانع الاسم وأرجوك ان تجيب علي سؤالي .

بلا مبالاة :

– اسندت لي الوزارة الاشراف علي الوحدة الصحية في قرية " الدمشطة " وعلاج سكان القرية .

سهى :

– اذن لماذا لا تقوم بواجبك ؟!

– لأننى في أشد الحاجة للراحة .

العمدة:

– ونحن لا نمانع في حصولك علي قسط من الراحة ولكن بعد قيامك بعملك

الطبيب:

– وهل عرفت مواعيد عملي ؟

العمدة:

– مواعيد !! أية مواعيد ؟! إن الأطباء لا يتقيدون بمواعيد.

– ولكننى لا أعمل إلا في مواعيد وهذه المواعيد تبدأ في الخامسة مساءاً وتنتهي في الخامسة صباحاً.

سهى:

– أظن أنك تقصد العكس

الطبيب :

– بل أقصد ما ذكرته.

العمدة بدهشة :

– كيف تكون مواعيد عملك في هذا التوقيت الغريب ؟!

صمت الطبيب رافضا التعليق فبادرت سهى قائلة:

– كما تشاء أيها الطبيب وليكن في علمك أننا سوف نخبر الوزارة بما حدث.

د. نعيم ببرود:

– يمكننى أن اغادر القرية اذا كان هذا يروق لكما .

العمدة مفزوعاً :

– لا ... لا تترك القرية .

سهى بهدوء :

– أتسمح أن نتحدث بالمنطق قليلا يا دكتور نعيم ؟

د. نعيم ببرود :

– تفضلي .

– ألا تشعر بالخجل لكونك ترفض علاج طفلا يتألم من المرض تحمله أمه إليك في لهفة.

د. نعيم بهدوء :

– وألا تشعرون أنتم بالخجل عندما لا ترسلون إلي دابة امتطيها حتى أصل لقريتكم .. ألا تعرفي انني سرت على قدميّ ليلة أمس اربعة ساعات كاملة من محطة قطار المركز الي هنا وسط الحقول والظلام والذئاب بينما كنتم انتم تتلذذون بالراحة والآن عندما أحاول الحصول علي حقي في الراحة أجدكم ترفعون سيوفكم ..

ثم استطرد د. نعيم :

– لماذا أخمدت سيوفكم وخلدتم الي النوم وأنا أقاوم كل شئ حتى أصل لقريتكم

ثم تطلع الي العمدة قائلا :

– وأنت يا حضرة العمدة ... ألا يملي عليك منصبك أن توفر لي دابة مع أحد الخفر لتوصلني الي هنا . أين دابتك وأين خفيرك.

شعر العمدة بخجل شديد فطرق بعصاه ارضا بينما هبطتا حدقتي " سهى " الي أسفل في خجل شديد.

العمدة :

– حقا.. نحن أخطأنا ونحن آسفون عن تكاسلنا عن حقك وأعدك بأن هذه سوف تكون الغلطة الاخيرة ولكن .....

قاطعت سهى ابيها قائلة :

– ولكن الطفل يتألم في الخارج.

الطبيب :

– سأقوم حالا بعلاجة .. والفحص علي أي مريض يأتي للوحدة في أي وقت .

ابتسمت سهى قليلا وقد أيقنت أن الطبيب حاول اعطائهم درسا فقط ثم قالت :

– هذا ما كنا نتوقعه منك يا دكتور نعيم .

العمدة :

– وبخصوص المواعيد ؟!

– سأجرى الفحص علي أي مريض في أي وقت ولكنني أحب أن أنوه عن شئ .. انني لن اجري الفحص علي اي شخص نهارا الا بداخل الوحدة الصحية .. أي أنني لن اذهب لمنزل أي مريض مهما كانت حالته .

العمدة:

– لا تقلق يا دكتور فسوف نوفر لك دابة لتتقلك الي ....

قاطعة د. نعيم قائلا :

– اذا سمحت .. وفر لي ما احتاجه من راحة وكفاني متاعب ... لن أذهب لمنزل اي شخص في النهار فلدي حساسية بعينيّ وشدة الضوء تؤذيهما.

سهى :

– حسناً ... حسناً كما تشاء.

****

وفي المساء كان " دهشان " يجلس امام الوحدة الصحية وإلي جواره الدكتور " نعيم " وكعادة هذه الفترة من العام كان البرد قارصاً، ودهشان يثرثر في تلك الظلمة الحالكة التي يفضلها د. نعيم :

– لذلك فبعد وفاة أبيها تزوجت من " محمد أبو خميس " الذي استولي علي ارضها وعلي منزل أبيها ثم تزوج بأخرى ، الزوجة الآخرى هي " هنية " بنت علي ابو حسين

كان " دهشان " يثرثر ويثرثر عن كل أحوال القرية سكانها ... جيرانها .. زوارها وكل شئ كل شئ بينما زاغت عين الدكتور نعيم لأعلي لأعلى نحو أحد النجوم في السماء ودهشان يثرثر :

– بعد ذلك ذهب " حسين أبو وهدان " للعمدة يشكو له استيلاء جاره " ابراهيم أبو مدكور " علي القيراطين فما كان من العمدة إلا أن قام بأأأ....

قاطعة دكتور نعيم بهدوء قائلاً :

– دهشان

– نعم يا دكتور " نعيم ".

– حدثني عن ابنة العمدة.

– تقصد " سهى " هانم

– نعم

– يا سلام علي الست " سهى " .. إنها بنت ولكنها تعادل ألف رجل ورجل من رجال قريتنا ... تساند هذا وتساعد ذلك وتقف مع المظلوم في وجه الظالم إنها كالدواء سريع المفعول تشفي في التو إنها....

قاطعة دكتور " نعيم " :

– كيف ؟

– سأخبرك .... مثلا عندما قُتل " يوسف الجرايحي " كانت " سهى " هانم تواسى زوجته وتشترى الحلوى لأطفاله و...

قاطعة دكتور نعيم :

– من يوسف الجرايحي هذا ؟

– المرحوم يوسف .. إنه أبو الطفل الذى أحضرته أمه اليوم في الصباح.

– تقصد المرأة الغجرية.

– نعم هى .... ولكنها ليست غجرية .. إنها إمرأة مسكينة ترعي أطفال يتامي.

في هذه اللحظة مر أمامهم عوض صاحب مقهي القرية ممسكا بمصباح كيروسين ضخم قائلاً:

– السلام عليكم.

دهشان :

– وعليكم السلام .. تفضل يا عوض.

عوض وهو يسير باسماً :

– كفانا الله زيارتكم.

ثم واصل سيره .. تطلع دكتور " نعيم " نحوه حتى ابتعد ثم قال لدهشان :

– من هذا ؟

– إنه عوض صاحب المقهي المتطرف .. هناك عند الساحة وهو يمر من هنا يوميا في مثل هذا التوقيت بعد ما يغلق مقهاه.

– وهل يحمل دائما مصباح معه؟

– نعم حتى ينير له الطريق.

– ألا يستطيع السير بدونه ؟

– لا أعتقد ذلك

– ومن الذي قتله ؟

– قتل عوض ؟!!!

– لا .. أتحدث عن يوسف

– لا أحد يعرف القاتل رغم مرور شهرين علي الحادث فالقاتل ترك " يوسف " غارقا في دماءه وسط الحقول ولم نشعر بمقتله إلا حينما أشاع " أبو الأخبار " الحدث .

دكتور نعيم بملل :

– حسنا يا دهشان يكفني هذا اليوم اذهب أنت لبيتك واسترح وأنا سأجلس منفردا قليلاً .

وقف " دهشان " قليلا ثم راح يلملم بعض أعواد الحطب وجمعهم في موضع واحد وأخرج علبة الثقاب من جيبه ولكن د. نعيم صرخ صرخة كادت أن تصم أذني " دهشان " قائلاً :

– ماذا تفعل ؟!

دهشان :

– سأوقد لك نارا لتجلب لك الدفئ .

دكتور نعيم بحدة :

– لا .. لا أريد أي مصدر للضوء.

– لماذا ؟

– إنه يؤدي عيني .. إذهب أنت ولا تبالي بي .

– حسناً .. حسناً.

ذهب دهشان لمنزلة .. وبعد دقائق هب د نعيم من جلسته وسار للأمام .. للأمام وسط الزراعات وسط الحقول في هذه الظلمة الحالكة.

****

لابد لهم من الحب حتى لا يكون الفناء مصيرهم . . . لا بد من القلوب التي تحب .

****

كان دكتور " نعيم " يسير مخترقا الظلمات في برود شديد . كان البرد قارص والظلمة حالكة ولكنه يسير كما يبدو نحو هدف معين .. سار كثيرا حتى وصل إلي جوار ساقية مهجورة فوقف الى جوارها في صمت ثم أدار بصره في كل الاتجاهات وقد بدا أنه يبحث عن شئ ما ... وقف قليلاً ثم عاد بنفس خطواته الثابتة الحادة للخلف عائدا للوحدة الصحية.

****

وفي اليوم التالي دخل " محمد المصري" الوحدة الصحية حاملاً هدية للدكتور " نعيم " عبارة عن سلة مغطاة بقطعة من القماش وبعد أن حيّا " دهشان " وضع هديته علي المكتب المعدني .. خرج الدكتور " نعيم " من غرفته وتطلع لمحمد المصري في برود شديد ثم قال في برود أشد:

– ماذا تريد ؟!

محمد المصري:

– أهلا يا دكتور " نعيم " يا دكتور الخير.

دكتور نعيم :

– كيف أحوال الطفل ؟

– بخير

دهشان متداخلاً :

– لقد جاء محمد المصري حاملا لك إحدى الهدايا .

تطلع دكتور " نعيم " الي الشئ المغطي الذي لا يظهر منه اي شئ ثم قال :

– ولكننى لا آكل أياً من هذه الأطعمة .

دهشان في دهشة :

– وهل عرفت ما بها ؟!

دكتور نعيم :

– نعم . بها بعض الجبن والقشدة والعسل وبعض الخضروات والخبز .

تطلع إليه " محمد المصري " في ذهول ثم قال :

– هذا صحيح ولكن كيف عرفت ذلك ؟!!!!!

تركه دكتور " نعيم " ودخل غرفته وأغلق بابها.

****

٣– صراعات :

كان بعض الخفر من خفراء العمدة يدخلون منزل الأخير ممسكين برجلين من رجال القرية كانا يتشاجران معا وفيما يبدو أن المشاجرة كانت شرسة فأحدهما تسيل الدماء من رأسه والآخر تملأ الكدمات وجه النحيل بعدما مزقا جلبابيهما.

توقف الخفر في منتصف القاعة وقال أحدهما منادياً.

– ياحضرة العمدة يا حضرة العم ...

قاطعة العمدة وهو يهبط بعض درجات السلم قائلا وهو يحاول أن يتحقق من كنه الرجلين:

– ماذا حدث ؟! من هذين الرجلين ؟!

أحد الحراس:

– إنهما " حسين أبو وهدان " و " إبراهيم أبو مدكور " لقد تشاجرا كالعادة .. العمدة بحدة للرجلين:

– تشاجرتما مرة أخرى ... ماذا أفعل معكما . هيا اخبراني .... أأسلمكما لشرطة المركز حتى ارتاح من همكما أم ماذا أفعل ... هه . منذ ثلاثة أيام تشاجرتما وسالت دماؤكما وأقسمتما أنها سوف تكون الأخيرة ولكن ..... ماذا أفعل معكما .

" حسين أبو وهدان " وهو يضع منديلا علي رأسه التي تسيل منها الدماء :

– إنه هو الذي أأأ.....

قاطعة العمدة صارخاً :

– اخرس انت تقول هو . وهو سيقول انت ... سأعطي لكما انذارا اخيرا إن لم تكفا عن المنازعات سأخذ القيراطين اللذين تتشاجران عليهما واضمهما لأرضي .. هل فهمتما.

ابراهيم أبو مدكور :

– إنه لا يريد ترك القيراطين لي

حسين:

– كيف اتركهما وهما ملكا لي ؟!

– بل ملكا لي أنا.

العمدة بحدة :

– أستعاودان الشجار امامي .

صمت الرجلان فأضاف العمدة :

– لقد حكمت في شأن القيراطين في المرة السابقة وقلت حسين يأخذ قيراطا وإبراهيم يأخذ قيراطا وقسمت أنا والخفر مساحتهما بينكما.

ابراهيم:

– ياعمدة كيف اترك قيراطا وأنا اعرف انه ملكا لي.

حسين:

– بل القيراطين ملكا لي انا.

ابراهيم:

– ليس ملكا لك أيها الـ...

العمدة :

– كفا عن الشجار أيها البغلين وكل شخص يلتزم في حدود القيراط الذي قسمته له .

وهنا اقتربت " سهى " منهما قائلة :

– الافضل يا أبي أن تأخذ القيراطين منهما.

العمدة :

– هذا ما سأفعله الآن.

فزع الرجلين وقالا معا :

– لا ... لا وافقنا بالقسمة العدل .

ثم خرجا بسرعة في حين ضحكت " سهى " قبل ان تقول لأبيها :

– هل تظن أنهما سيكفان عن الشجار؟

– لا اعتقد ذلك

ثم قالت وقد بدا عليها أنها تعد للحديث :

– هل ذهبت يا أبي للوحدة الصحية .

– لما ؟

– لمعرفة ما إذا كان دكتور " نعيم " يقوم بعملة علي اكمل وجه .

– اعتقد ذلك فهو فيما يبدو رجل ذو مبادئ خاصة .

ابتسمت سهى وقالت :

– هيا نذهب إذن للوحدة الصحية لنتأكد من ذلك .

– لن استطيع الذهاب الآن فأنا علي موعد مع الحاج شعبان .

وضعت " سهى " سبابتها بين أسنانها وقالت بخجل :

– بعد إذنك يا أبي سأذهب لأري كيف تسير الأمور هناك .

العمدة بدهشة :

– كيف يا سهى تذهبين وحدك لرجل غريب ؟!!!

– لا تخشي شيئا يا أبي لا تخشي شيئا . سألقي نظرة علي الوحدة وأعود بسرعة

– حسنا .. اذهب معها يا خفير " علي "

****

وفي صباح يوم السادس من فبراير كان " ابو الاخبار " يجري مسرعا في كل أرجاء القرية ذائعا الخبر التالي:

– يا أهل البلد يا أهل البلد مصطفي النحاس تولي الوزارة خلفا لعلي ماهر . يا أهل البلد .. يا أهل البلد.. مصطفي النحاس تولي الوزارة .... يا أهل البلد ....

كان دهشان يقف أمام الوحدة الصحية عندما مر أمامه " أبو الأخبار " كالصاروخ معلنا الخبر السابق . دخل دهشان الوحدة قائلا للدكتور " نعيم " الذي كان يجلس علي مكتب معدني يتطلع لورقة مكتوبة برموز غريبة جداً.

دهشان :

– اسمعت هذا الخبر يا دكتور نعيم ؟

– أى خبر ؟!

– خبر تعيين مصطفي النحاس رئيسا للوزارة .

د. نعيم ببساطة :

– ليست لي أى ميول سياسية

– خير ما فعلت فالسياسة بحر غريق من يسبح فيه هالك .

صمت دكتور " نعيم " فترة ثم قال :

– حدثني يا دهشان . هل أحببت من قبل ؟

تطلع دهشان لدكتور " نعيم " في خبث ثم قال مبتسما :

– نعم أحببت

ببرود:

– من ؟

– ابنة عمي التي أصبحت الآن زوجتي ولكن .. ولكن ما الذي ...

أشار له د. نعيم أن يصمت قائلاً:

– لا شأن لك بذلك يا دهشان .

دهشان بخبث:

– كما تشاء

****

وعند جذع الشجرة كان المجرمان يجلسان وقد ازدادت سخونة الحوار.

سعدية:

– كنت أعرف أنك جبان وسوف تتخلي عني

– رشاد بحدة :

– لست جبانا ولكنني ...

– ولكنك ماذا ؟

– ولكني لا استطيع ان اخبر ابي ان من اخترتها زوجة لي هي سعدية أخت محمد المصري " فمصطوايا الإجتماعي " لا يسمح بذلك ...

قاطعته سعدية :

– طالما مقامك أعلي من مقامنا ونحن لا نناسبك لماذا ظللت توعدني بالزواج حتى أأ...(ثم ترددت قبل أن تقول) حتى أصبحت حامل.

رشاد صارخا:

– ماذا حامل !!! ولم يمر علي الواقعة أكثر من عشرين يوما هل تظنيني أبله

– لا أظن شيئا ولكننى اريد ان اعرف الآن .. هل ستذهب لمقابلة اخي وتطلب منه زواجنا أم لا.

رشاد بارتباك :

– إن ... أن .... نعم ... لا ...

سعدية بحدة :

– نعم أم لا ؟

– لا .. لن أذهب .. اذهبي لمن فعل هذا معك وأطلبي منه الزواج .

وهنا هبت سعدية وبكل قوة هوت بيدها علي وجه رشاد الذى رد اللطمة علي وجهها على الفور قائلاً :

– يابنت الكلب إذا أراد رشاد أن يتزوج فإنه سوف يتزوج بمن تشرفه وتشرف أبنائه .

سعدية وقد سالت دموعها اثر اللطمة :

– لن يقبل أحدا ان يزوجك ابنته .

بسخرية :

– أنسيتي أننى ابن العمدة .

– لا لم انس ولكن الفضيحة التي سترتبط بك ستجعلهم يولون عنك ....

ثم قالت بعنف :

– أقسم بقلبي الذي أحبك يا رشاد انك إن لم تأتي لمقابلة أخي يوم الخميس القادم فإنك سوف تستيقظ صباح الجمعة لتستمع لفضيحتك التي سوف يذيعها " أبو الأخبار " علناً.

رشاد بذعر:

– ماذا ؟!!! هل أصابك الجنون كيف تفعلين تلك الفعلة الـ ..

قاطعته سعدية :

– إذا قابلت أخي مساء الخميس فلن تستمع لصوت " أبو الأخبار " صباح الجمعة .

– ألا تخجلين من نفسك عندما تملآ فضيحتك أركان القرية.

– في هذه الحالة لن يهمني شئ مادمت سوف أضيع .

صمت رشاد فترة طويلة ثم قال بخبث:

– لا تخافي لن أدعك تضيعي .

****

وفي الوحدة الصحية كانت " سهى " تجلس علي مقعد أمام دكتور " نعيم " الجالس علي مكتبه بينما كان " دهشان " والخفير " علي " يتحدثان أمام باب الوحدة ...

دكتور " نعيم " بهدوء :

– مرحبا يا أنسة سهى .

سهى باسمة :

– عرفت إسمي !!

– نعم فلقد سألت " دهشان " عنك .

– وماذا قال لك دهشان ؟

– قال ما كنت أتوقعه عنك .

– أفهم من ذلك أنك كنت تتحرى عني .

دكتور " نعيم " ببرود :

– لا .. كنا نتحدث عن القرية والحديث تطرق الي ان وصل اليك .

– حسنا وخير ما فعلت انك تحاول ان تعرف كل شئ عن القرية فهذا سوف يساعدك في عملك

صمت دكتور " نعيم " برهة ثم قال :

– لماذا لم تتزوجي حتى الآن ؟

أجابت " سهى " علي الفور قبل أن يزحف الخجل الي وجهها :

– لأنني لا اريد ان يقف اي شئ في طريق دراستي .

صمت دكتور نعيم وطال صمته فسألته سهى :

– ولماذا تسأل ؟!

ببرود شديد :

– لأنني لاحظت ان الفتيات هنا تتزوج في سن صغيرة جدا .

استاءت " سهى " قليلا من اسلوب دكتور " نعيم " الجاف فقالت في شبه عصبية :

– ولكن سهى تختلف عن باقي الفتيات .

– طبعا فأنت ابنة العمدة

سهى بشدة :

– بل أنا فتاة جامعية مثقفة .

دكتور " نعيم " وقد ابتعد تماما عن محور حديثه :

– اسمك " سهى " ... ماذا يعني هذا الاسم؟

ابتسمت سهى قائلة :

– " سهى " هو اسم لنجم بعيد في السماء

وهنا هب دكتور " نعيم " قائلا بشدة :

– ماذا ؟ نجم بعيد في السماء !! مستحيل .

– مستحيل لماذا ؟! هذه معلومة علمية ثابتة .

– هذه معلومة خاطئة لا يوجد نجم في السماء يحمل اسم " سهى" أنا اعرف النجوم وأسمائهم جيدا.

****

لقد كانوا كثيرون . . متحضرون . . ولكنهم تباغضوا . . تنازعوا . . تقاتلوا حتى لم يعد منهم سوى عدد قليل . .

إنهم بحاجة للحب . إنهم بحاجة للقلوب التي تحب.

****

أبو الاخبار بصوته الجهير:

– " يا أهل البلد يا أهل البلد لقد قُتلت سعدية ابنة السيد المصري ووجدوا جثتها في الترعة يا أهل البلد .. يا أهل البلد .. يا أهل البلد لقد قُتلت سعدية ابنة السيد المصري ووجدوا جثتها في الترعة يا أهل البلد .."

كان الاهالي قد التفوا حول الجثة التي كان واضحا عليها أثر الطعنة الكبيرة التي احدثت فجوة في القلب بينما أم سعدية تصرخ وتلطم خديها وتضع التراب علي رأسها وحولها النساء يواسونها ، وكان محمد المصري يقف باكيا الي جوار جثة أخته حين أتي العمدة ومعه سهى ورشاد وحوله عدد من الخفر.

العمدة بضجر :

– من الذى فعل هذا يا محمد يا مصري ؟

اكتفي الرجل بالبكاء دون إجابة في حين أعاد العمدة السؤال لباقي الرجال :

– من الذى فعل هذا أيها الرجال ؟

أحد الرجال:

– لا ندري من الفاعل .

رجل آخر :

– لقد كنت عائدا لبيتي عندما وجدت الجثة طافية علي الترعة .

كان رشاد يتابع الموقف وقلبه علي وشك التوقف رعبا .. في حين أمسكت سهى بيد أم محمد المصري وسارت معها بعيدا نحو دارها .

العمدة بحدة :

– أيها الخفر اذا لم تسلمونني القاتل اليوم فلا اريد احدا منكم .

أحد الخفر:

– ولكن كيف ...

العمدة صارخا بشدة :

– بدون لكن فمنذ شهرين سقط يوسف الجرايحي ولم نعرف القاتل . واليوم تسقط سعدية وبالتأكيد الفاعل شخص واحد ولن ندعه يفر بجريمتيه .

****

تباغضوا .. تقاتلوا .. اوشكوا علي الفناء لأنهم لا يعرفون الحب .. لأنهم بلا قلوب .

****

في الوحدة الصحية كان د. نعيم يجلس كتمثال الثلج ودهشان يثرثر كعادته وهو يعد كوب من الشاي :

– لقد وصل اليوم عددا كبيرا من رجال الشرطة الي القرية فهذه ثاني جريمة قتل تقع خلال شهرين .

قذفه د. نعيم بنظرة حادة وكأنه يريد ان يستفسر عن شئ ما. ودهشان يواصل :

– لقد كان سعدية فتاة طيبة ولكنهم – منهم لله – أثاروا عليها شائعات بأنها...

ثم صمت دهشان لحظة قبل أن يقول :

– ربنا يستر علي ولايانا .

ثم قال محاولا التلصص من موضوع الشائعات :

– ولكن ... ولكن لماذا لم تذهب يا دكتور نعيم لفحص الجثة ؟

ببرود :

– في مثل هذه الحالات تندب الشرطة طبيبا شرعيا ليقوم بذلك .

دهشان:

– أهذا هو السبب في عدم ذهابك لرؤية الجثة أم لأنك لا تحب الخروج نهارا بسبب حساسية الضوء لك ؟

– كلا السببين .

دهشان بثرثرة

– يقولون ان جثة سعدية قد انتزع منها القلب .

لم تبد أية علامة للدهشة علي وجه د. نعيم وهو يقول :

– هل عرفوا القاتل ؟

– لا لم يعرفوه بعد فالجريمة لم تقع إلا منذ ثلاثة أيام والجاني لن يظهر بسهولة ولكنهم حتما سوف يعرفونه ويقتصوا منه ذلك السفاح الـ..

قاطعة د. نعيم قائلا :

– اعتقد ان المجرم قد فر بجريمته وبقلب حبيبته .

دهشان بغرابة

– تقصد من ؟!

****

وفي بيت العمدة اندفعت سهى نحو غرفة شقيقها منادية إياه :

– رشاد .... رشاد .

فتح رشاد باب حجرته قائلا لأخته .

– ماذا تريدين ؟

فدخلت قائلة :

– أريد ان أتحدث معك في أمر ما .

رشاد شبه باكيا كطفل :

– لا لم اقتل سعدية لم اقتلها .

– حسنا لقد وفرت عليّ السؤال .

– نعم كنت علي علاقة بها وكنت احبها وكنني لم اقتلها .

سهى بعطف :

– أعرف ذلك يا رشاد .. ولكن من الذي فعل ذلك ؟

– لا أعرف ... لا أعرف . بالتأكيد هناك من فعل ذلك لشئ في نفسه او قد يكون هناك شخص يريد الانتقام مني بطريقة ملتوية .

ثم انهمك رشاد في البكاء عندما قالت له سهى :

– إن الشرطة جاءت لتصطحبك فهناك عدد منهم بالأسفل في انتظارك .

ازداد بكاء رشاد فبادرت سهى بالقول :

– لا تخشي شيئا طالما أنك مظلوم فالله لن يتخلي عنك .

– ولكن .....

****

كعادتهم في الضراء قبل السراء يجتمع اهل الريف .. وإلي جوار بيت محمد المصري كان هذا الاخير قد بسط علي الارض عددا من المفروشات البسيطة جلس عليها رجال القرية بينما تجمعن النساء بالداخل كان الشيخ محمد امام مسجد القرية يتلو آيات الذكر الحكيم عندما كان محمد المصري شاردا بذهنه بعيدا وعدة اسئلة تدور تحت غطاء رأسه البني اللون :

– من الذي فعل هذا بسعدية ؟!.. من ذلك الوحش الذي انتزع قلبها بلا رحمة ؟! هل لشرودها في الفترة الاخيرة صلة بما حدث ؟!

كانت اسئلة عديدة تدور في تلك الرأس الصغيرة وعيناه تتطلعان بحدة للأمام .. وعندما أنهي شيخ المسجد تلاوة الذكر وبعدما قرأ الحاضرون الفاتحة بدأ الرجال في الإنصراف مع مواساة الشارد الحزين

****

ازدادت الصراعات الشرسة بين الكلاب حتى أوشكوا علي الانقراض . . .لا بد من وجود الحب بينهم.

****

وفي منزل العمدة كان الأخير يجلس الي جوار ابنته سهي التي ارتدت الملابس السوداء حزنا علي شقيقها وحدادا علي صديقتها .

العمدة بضجر :

– مرت ثلاثة أيام منذ ان احتجزت الشرطة رشاد .

سهي :

– لا تقلق يا أبي فهو لا يزال علي ذمة التحقيق كما انه ليس الوحيد في هذه القضية فالنيابة تحقق مع آخرين .

العمدة بحزن:

– كنت اعلم ان نهايته اقتربت فقد انتابه الغرور..

قاطعته سهي

– لا تقل ذلك يا ابي فلم توجه له تهمة بعد وما يحدث الأن تحقيقات للنيابة ليس إلا .

– اتعتقدين انه الفاعل ؟

سهي بدهشة :

– لا يا أبي .. حقا رشاد غليظ الطبع غبي الفكر ولكنه لا يجرؤ علي القتل .

– لقد اخبرني الخفير " علي " أن ...

ثم قطع حديثه أثر سماعة لصوت ضجيج قادما نحوه من حسين أبو وهدان وابراهيم أبو مدكور وقد وضح انهما عائدان من معركة جديدة .

حسين وهو يشير نحو جرح في وجهة :

– أنظر يا حضرة العمدة ماذا فعل بي ؟

ابراهيم:

– لقد تجاوز الحدود التي رسمتها لنا وإدعي مجددا بأن القيراطين ملكا له .

حسين :

– لم اتجاوز حدودي .. فقط كنت اتناقش معه عندما ...

وهنا صرخ العمدة صرخة أفزعتهما معا قائلا :

– اخرسا ... اخرسا ايها الغبيين ..... ماذا أفعل معكما ؟

ابراهيم:

– لقد سبني بأمي وقال لي ....

العمدة بحدة

– ألا تشعران بالخجل من أنفسكما .. من أهلكما .. من أطفالكما .. ماذا أفعل معكما ؟!

ثم صمت العمدة برهة قبل ان ينادي قائلاً :

– يا خفير "علي" .

أتاه الخفير " علي " مسرعا ببندقيته التي تبدو وكأنها إلتصقت بظهره قائلاً :

– نعم يا حضرة العمدة .

العمدة :

– فلتلقي بهذين الغبيين خارج الدار .

إرتبك الرجلان وهما يثرثران بعدة كلمات :

– ولكنك لم تفصل بيننا في هذا النزاع . إن .. الـ ... إنك لم تحكم بيننا ....

قاطعهما العمدة قائلا :

– من يستطيع منكما أن يقتل اخاه فليفعل .

صمت الرجلان في خجل والعمدة يضيف :

– ولا ينسي ايا منكما ان يخرج قلب الاخر ويمزقة إرباً .. هذا حكمي الأخير بينكما .. هيا أخرجا .

****

كانت الساعة تخطت منتصف الليل عندما خرج يعاند الظلام والبرد سار دكتور " نعيم" بخطواته الحادة الثابتة بين الزراعات مادا بصره للأمام لم يتلفت يمينا او يسارا كان يعرف اتجاهه جيدا هناك .... هناك عند الساقية المهجورة.

****

٤- العدالة :

وفي الصباح كان دكتور نعيم يجلس في حجرته الخاصة وقد امسك بخريطة فلكية كبيرة بها عدة أبراج وكواكب الفلكيون يعرفونها جيدا إنها خريطة لنصف الكرة السماوى الجنوبي كان مكتوب بأعلاها بضع كلمات برموز غريبة جداً .

حدق دكتور نعيم بشدة في الخريطة التي كانت تشمل كل نجوم وكوكبات نصف الكرة السماوى الجنوبي ثم وضع دكتور " نعيم " اصبعة السبابة علي الخريطة وراح يمرره علي مواقع النجوم والكوكبات في سلاسة بادئا من الشمال الشرقي متجها نحو الجنوب الغربي وهو يقول في صوت خافت ..(الدلو .. الجدي .. الهندي .. المثلث الجنوبي .. نعيم .. الاشرعة . الألة المفرغة .. الكلب الأصغر).

ثبت دكتور " نعيم " سبابته علي كوكب الكلب الأصغر وشرد بذهنة كثيرا حتى طرق دهشان باب حجرته قائلاً :

- دكتور نعيم .. دكتور نعيم .

نعيم :

- ماذا تريد يادهشان ؟

دهشان من الخارج :

- أهل يوسف الجرايحي يريدونك .

- لما ؟

- الطفل مريض

خرج دكتور نعيم من غرفته واغلق بابها خلفه بإحكام واتجه نحو الطفل الصغير الممدد علي سرير صغير ورفع سترة الطفل لأعلي ووضع يده علي عدة مواضع في بطن الطفل طارقا هذه المواضع بلطف ثم امر الطفل بالنهوض قبل ان يتطلع إلي امه ببرود ويقول :

- واضح جدا انك لم تحرصي علي إعطاءه الدواء بإنتظام .

زوجة يوسف :

- إنه يرفض الدواء لأنه مر .

ببرود :

- وماذا عساي أن أفعل ؟!

بغباء :

– اعطيه دواء حلو المذاق .

– لا يوجد دواء مر او حلو المذاق .. الدواء له غرضه الذي صنع من اجله

دهشان :

– ألا يمكنها ان تضع القليل من السكر علي الدواء .

رمي دكتور " نعيم " حدقته بشدة نحو دهشان الذى شعر بالخجل من غباءه .

فواصل الدكتور " نعيم ":

– ارغميه علي اخذ الدواء .

– لا استطيع ان افعل ذلك .

دكتور نعيم ثائراً :

– تستطيعين فقط ان تتشاجري وترفعي صوتك بالسباب .. أعطية الدواء ولا تأتي الي مرة اخري.

****

كانت الشمس واقفة في الربع الاخير من السماء تلمح الي قرب غروبها وقد انتظرت قليلا تتحسر علي أحوال من لا يتعظا فتحت هذه الشمس تسارع ملوك .. تنازع سلاطين .. تغيرت أحوال وتبدلت أطوار .. قتل قابيل أخيه .. تمرد النمرود .. كفر فرعون .. ثم أين هم الآن ؟!!

تحت تراب هذه الارض تمدد عنترة بجوار سيفة .. نسي قيس اسم محبوبته .. لم يبق من نابليون إلا اسمه .. اصبح هتلر عظاما هشه .. وما زال حسين أبو وهدان يتشاجر مع ابراهيم أبو مدكور علي قيراطين من الأرض .. لم تصل معركتهم هذه المرة الي حد الإشتباك فرجال القرية قد عرفوا طباعهما وأصبحوا لا يروهما يجتمعان في مكان واحد الا ويسرعوا لفض اي اشتباك محتمل .. كانت المعركة هذه المرة بسيطة جدا حتى انها لم تصل الي السباب مما شجع الشيخ " محمد " امام المسجد الي القول في صوت هادئ ملائكي :

– الي متي .. الي متي ستظلان تتشاجران كالأطفال ؟!

حسين :

– كلما أأ..

قاطعة الشيخ محمد :

– انتظر يا حسين حتى انتهي

احد رجال القرية :

– تفضل يا حاج محمد .

الشيخ محمد :

– سأقص عليكم حكاية حدثت في قديم الزمان :

" يذكر السلف الصالح ان رجلين تنازعا علي سور مبني من الطين وظل كلا منهما يطالب بأحقيته في ملكية السور فأنطق الله بقدرته لبنة من هذا السور فقالت اللبنة : لقد كنت منذ اكثر من ألفي عام ملكا علي إحدى البلاد وقد كنت أملك من القصور والحدائق والخدم مالا تستطيعان تصوره وقد كان من حولي لا يترددون في خدمتي ابدا وكنت ما اشتهاه ألقاه فى التو . بعد ذلك مت فدفنت في مساحة مترين تحت التراب مر ألف عام فإذا برجل يصنع الفخار يحفر تحت الرمال ويأخذ جسدي الذي اصبح والرمال سواء فصنع مني فخارة إشتراها رجل ووضعها في منزله مرت عشرات السنين حتى سقطت من يدى صاحبة الدار فرمتني في الطرقات مرت ألف عام أخرى حتى اخذني شخص ما وصنع مني لبنة ووضعها في هذا السور وهذا أصبح مصيري الآن بعد الملك والجاه فعلام تتنازعان ؟!! "

ثم استطرد الشيخ محمد قائلا :

– من هذه الموعظة يجب ان تعلما انه لا ملك ولا جاه ولا سلطان إلا لله الواحد القهار لذلك فأنا وأهل القرية ننتظركما في المسجد نصلي صلاة المغرب ثم نقرأ الفاتحة علي ألا تعودا للشجار مرة اخري .

****

هذا ولا بد أن يتحابوا . . لابد أن يتحدوا . . وإلا فإن مصيرهم الفناء .

****

أمييين .... كان رجال القرية ومعهم الشيخ " محمد " و " حسين " و ابراهيم " قد قرأوا الفاتحة ثم تصافحا الإثنان وتعانقا وتعاهدا عي صفاء السرائر في هذا الجو الروحاني بداخل المسجد بعدها قام بعض الرجال لصلاة ركعتي السنة حين اقترب احد الشباب من الشيخ محمد قائلا بهمس :

– ألن تفاتح " حسين ابو وهدان " في موضوعنا يا شيخ " محمد" ؟

ربت الشيخ محمد علي كتفه ثم قال :

– سأحدثه حالا يا بني .

واشار الشيخ محمد الي حسين الذي كان قد فرغ من صلاته فجاءه علي الفور وجلس الي جواره قائلا باحترام شديد :

– أعرف ما تريد أن تقوله لي . لا تخشي شيئا لقد أقسمنا وقرأنا الفاتحة علي الا نعود

قاطعة الشيخ " محمد " قائلا :

– نعم .. نعم أعلم أنك تحترم كلمتك ولكننى اريدك لشئ آخر.

حسين بهدوء :

– خيرا إن شاء الله يا شيخ " محمد "

إبتسم الشيخ في سماحة شديدة وقال :

– خيرا إن شاء الله .. فلا تقلق .

ثم أشار الشيخ محمد الي الشاب الجالس الى جواره وقال :

– " السيد ابو خليل " من خيرة شباب الدمشطة .

حسين :

– جميعنا نعرف ذلك .

الشيخ "محمد"

– حسنا .. حسنا . " السيد " يريد ان يتزوج أختك " هند" ويريدك ان تحدد له موعدا لكي يأتي لزيارتكم هو وأبيه الحاج " خليل".

حسين ببساطة القروي وطيبة قلبه :

– يشرفوننا في اي يوم وفي اي وقت فالدار دارهم .

إبتسم " السيد " في سعادة وربت الشيخ " محمد " علي كتف حسين وقال :

– هذا ما كنا ننتظره منك يا حسين

كان معظم الرجال قد خرجوا من المسجد بما فيهم ابراهيم ابو مدكور ولم يبق إلا قلة قليلة جدا والحوار لا يزال دائراً .

حسين :

– إن السيد أخي ولا ارفض له طلبا مهما كان .

السيد :

هذه شيمة أبناء الأصول أمثالك يا حسين .

حسين :

– بل انت ابن الأصول .. فإنني لن أنسي ما حييت مساعدة أبيك لنا عندما هاجمت الدودة القطن كما لن أنسي ما فعله من أجلنا في موسم الحصاد الماضي .

الشيخ محمد :

– نعم يا حسين فالحاج خليل لا يتردد في مساعدة أحد و...

واستمر النقاش طويلا .. طويلا وكلاهما يمدح الآخر .. كان المسجد خاويا إلا من هؤلاء الثلاثة عندما سمعوا صوت أبو الأخبار ينادي في ذعر:

– يا أهل البلد .. يا أهل البلد وجدوا " ابراهيم أبو مدكور " مقتولا الي جوار ارضه يا أهل البلد .. يا أهل البلد " ابراهيم ابو مدكور" قتل بجوار أرضه يا أهل البلد .

هب الثلاثة من أماكنهم وتطلع كل منهم في وجه الآخر في فزع وقد سرت رعشة خفيفة في جسد " حسين".

****

كان أبو الأخبار يواصل شدوه عندما مر امام الوحدة الصحية .. فتطلع دهشان الي وجه دكتور " نعيم " الذي بدا كعادته لا يحمل تعبيرا سوى البرود.

دهشان :

– ما الذي حدث للقرية ؟! .. هل أصبحت جرائم القتل عادة أم أنها ...؟! ثم توقف عن الحديث وراح يطرق كفية وقد تدلي فكه السفلي في ذهول شديد الي ان قال دكتور نعيم:

– تظن من الجاني ؟

– الله أعلم .. أولاد الحرام كثيرون .

– حسنا سأخبرك .. الفاعل هو " أبو الأخبار" .

دهشان بغرابة :

– أبو الأخبار !!!!... ما الذي جعلك تشك به ؟

– ليس شكاً .. اننى علي يقين بأنه قتل إبراهيم كما قتل سعدية من قبل.

– يا دكتور إن بعض الظن إثم .

– ولكننى متأكد مما أقول.

****

وفي ظهيرة اليوم التالي كان وكيل النيابة يستمع بإهتمام شديد للطبيب الشرعي الذي تولي تشريح الجثة.

الطبيب:

– إنها نفس الطريقة التي قتلت بها المجني عليها " سعدية السيد المصري " انتزاع القلب من الجسد مع عدم وجود أية آثار عنف بالجثة كضرب أو خنق او ما شابه ذلك .

وكيل النيابة :

– وما نوع الآلة الحادة المستخدمة .

– التشريح ينفي إستخدام آلة حادة .

– كيف

الطبيب بإستطراد:

– بل ويؤكد علي وجود آثار أصابع بشرية في الفجوة التي انتزع منها القلب.

– ماذا تعني بذلك ؟!

– أعني أن القاتل انسان سفاح .

– هل خدرت الجثة قبل ...؟

– القتيل لم يخدر قبل موته .

– اتعني أن القاتل إنتزع القلب والضحية حية؟!

– نعم.

عقد وكيل النيابة حاجبيه برهة قبل ان يقول :

– لو ذئبا كان سيترك آثارا ولو بشرا لما استطاع ان ينتزع القلب بيده والضحية حية... تعتقد من يكون القاتل ؟

الطبيب وهو يسلم أوراقاً لوكيل النيابة ويهم بالخروج :

– الله أعلم .. الي هنا قد انتهي دوري.

****

في نفس الوقت بمنزل العمدة كانت الحيرة تعتصر صاحب الدار وهو يسير ذهابا وعدوا في ساحة الدار وسهي التي تقف الي جواره محاولة تهدئته تقول في إصرار:

– المهم يا أبي أننا تأكدنا أن رشاد ليس القاتل فالجريمة حدثت بنفس الطريقة التي أتهم أخي بارتكابها وهذا يعني أنهم سوف يفرجون عنه قريباً.

– أعلم ذلك يا ابنتي ولكن الجرائم ... القتلي يتساقطون وكأننا في معركة.

– لم يصبحوا قتلي بعد يا أبي إنهم قتيلين فقط .

– بل ثلاث وهل نسيتي يوسف الجرايحي .

– لا .. ولكن يوسف قتل بطلق ناري في وضح النهار وكلنا نعلم ان مجموعة لصوص المواشي الذين كان يصاحبهم هم الذين أأ .....

قاطعها أبيها قائلا :

– دعينا من هذا الآن يا سهي .. وأخبريني بأخر الأخبار .

– لقد أخبرني " أبو الأخبار " بأن التحقيقات جارية الآن مع بعض الشهود.

****

وكيل النيابة للجالس أمامه :

– اسمك .. وسنك .. وعنوانك .. ؟ ومهنتك ..؟

– محمد ابو عبد الرحمن اسماعيل عمري ٥٤ عاما اقطن بقرية " الدمشطة" واعمل إماما لمسجد القرية .

– أين كنت وقت ارتكاب الجريمة يا شيخ محمد ؟

– في ذلك الوقت كنت أجلس بالمسجد مع " السيد أبو خليل " و"حسين أبو وهدان " نتحدث في .....

****

وفي الطريق الموازى للترعة كان الشيخ محمد يمتطي حمارا وقد امسك بشمسية سوداء اللون والي جواره كان السيد وحسين يمتطيان حمارا اخر في طريق عودتهم .

الشيخ محمد :

– إن العدل من اسماء الله تعالي والله يأبي إلا أن يكون العدل هو الأعم فلولا طلب السيد الزواج من أختك وانتظارك بعد الصلاة معنا لكانت الأصابع مصوبة نحوك.

حسين :

– الحمد لله . ما كان احداً سيصدقني اذا قلت أنني ليس الفاعل ولكنني ...

قاطعه السيد :

– ولكنك لم تخبرني متى يمكننا زيارتكم .

حسين :

– فلنؤجل الزيارة الآن فالظروف لا تشجع بعد مقتل ابراهيم .

****

كان الليل قد ارتدى عباءته السوداء عندما جلس دكتور نعيم في حجرته الخاصة منعزلا يعبث بأنامله ببعض الاجهزة الصغيرة الدقيقة ،الغاية في الغرابة والتي لا نعرف ماهيتها وإلي جواره خريطة نصف الكرة السماوي الجنوبي كانت تلك الأجهزة تصدر وميضا وردي اللون كلما وضع دكتور " نعيم " اصبعه علي كلمة " الكلب الأصغر " البارزة قليلا ثم لا يلبث هذا اللون إلا أن يتحول الي الأخضر عندما يضع أصبعه علي كلمة

" نعيم ".

كان دكتور " نعيم " قد انهمك في عمله لدرجة أن لعابه سال من فمه دون أن يدرى .. وفي وسط هذا التركيز الشديد سمع دكتور نعيم صوت ضجيج بالخارج جعله يندفع نحوه ويقول دون ان يدرى كنه الواقفين أمامه :

– أيها الأغبياء إنكم لتفتقرون لأقل مبادئ الذوق.

تطلعت سهي التي تحمل ابن يوسف الجرايحي عي كتفها الي دكتور نعيم دون ان تنطق بحرف فزوجة يوسف وفرت ذلك عليها قائلة :

– أيها المتعجرف ان الولد حالته خطرة جدا ولا تحتمل انتظار قذارة لسانك .

إلتقط دكتور نعيم الطفل من سهي قائلا :

– ماذا به ؟

سهي :

– لقد شرب محلول الصودا الكاوية .

دكتور نعيم بحدة وهو ينظر في فم الطفل .

– طبعا من له أم غبية مستهترة ليس بعيدا عليه ان يفعل أية شئ .

أوشكت زوجة يوسف ان ترد عليه بشتيمة نووية ولكنه صرخ في وجهها بشدة أرعبتها

– هيا .. احضري أربع بيضات وأخلطيهم بكوب لبن هيا ....

.... بدا الارتياح علي وجه الطفل بعدما تجرع كوب اللبن وان كانت عيناه قد ادمعتا قليلا....

دكتور نعيم بعصبية :

– هيا خذي ابنك وارحلي .

زوجة يوسف :

– أتظن أننا نتسول منك ؟! ... إنك في مكانك هذا من أجل خدمتنا أتعي ذلك أم لا ؟

– بالتأكيد لا .. لأن من أرسلوني الي قريتكم لم يخبروني بأنني سوف أعمل خادما عند أبوكي .

وهنا ثارت زوجة يوسف وأمسكت بياقة الرداء الأبيض للدكتور نعيم ولكن الأخير أمسك معصميها بشدة ودفعها للخلف بعنف فجعل ظهرها يرتطم بالحائط وهنا تدخلت سهي لتهدئ الموقف مع بكاء الطفل الصغير علي أمه .

سهي :

– ما هذا ؟! هل مسكما الجنون .. إنكما .. إنكما.

اندفعت زوجة يوسف مرة أخرى نحو دكتور نعيم محاولة النيل منه ولكن " سهي " أمسكت بها قائلة :

– كفي .. كفا عن ذلك .

تطلع دكتور نعيم حوله ثم أمسك بالطفل ودفعه بلا عنف نحو باب الوحدة قائلاً :

– هيا أخرجي أيتها الغبية .

سهي :

– كفاك يا دكتور " نعيم ".

دكتور نعيم بحدة :

– فالتخرج هذه المرأة من هنا بسرعة .

جذبت سهي المرأة نحو الخارج وتبعهما الطفل .. وهنا وضع دكتور نعيم يده علي جبهته وقال :

– اللعنة .. لم أستطع إبلاغ الأمر . لقد قطعت تلك الجرثومة رسالتي !

ثم عادت سهي ونظرت بحدة للدكتور نعيم وقالت :

– من تظن نفسك ؟

بدا دكتور نعيم وكأنه لم يسمع شيئا علي الإطلاق عندما قال :

– أرجوك يا أنسة سهي تولي أنت رعاية ابن يوسف الجرايحي .

سهى بدهشة :

– كيف أرعاه وامهم حية ترزق .

– ولكننى ارى انك أحنّ عليه منها .

ثم أضاف :

– تولي انت أبنها .. اما هي فيستولاها أبو الأخبار.

سهي بتعجب:

– أبو الاخبار !!

٥– أبو الأخبار :

كانت الساعة قد تخطت منتصف الليل بكثير واقتربت من الفجر عندما كان ابو الاخبار يسير بخطوات قوية سريعة علي غير عادته ممسكا بطرف جلبابه رافعا اياه أكثر من اللازم كان يسير نحو هدف معين في ذلك الوقت المتأخر جدا الخالي من المارة سوى رشاد الذي كان قد وصل توا الي القرية بعد الإفراج عنه في وقت متأخر .

رشاد بنشوة :

– أبو الأخبار .

تسمر أبو الأخبار في مكانه وتطلع الي رشاد قائلاً في برود :

– ماذا تريد ؟

إندهش رشاد من رد أبو الأخبار فكيف لذلك الصعلوك أن يحدث سيده هكذا ولكنه أضاف :

– لقد أفرجت النيابة عني ولم توجه اليّ تهمة قتل سعدية .

أبو الاخبار بهدوء :

– يسعدني ذلك يا رشاد بيه .

ثم واصل أبو الأخبار سيره نحو هدفه ... علت الدهشة وجه رشاد الذي حك مؤخرة رأسه في غرابة شديدة .. لقد سار أبو الأخبار في طريقه وكأنه لم يرى شيئا . لماذا لم ينطلق في القرية ويذيع الخبر .. لعله مسه الجنون أو فقد موهبته الاعلامية.

****

– من ... من الطارق ؟ .. من ؟! انتظر .

كانت زوجة يوسف قد استيقظت من نومها مفزوعة وشرعت في إضاءة لمبة الجاز وصوت طرقات قوية تنهال علي باب بيتها وهي تردد في رهبة شديدة .

– من الطارق ....؟ أجبني.

والطرقات تتواصل الي أن فرغت من اضاءة اللمبة فأمسكت بها وسارت نحو الباب ثم توقفت خلفه قائلة بخوف :

– من الطارق ؟

لم يأتيها صوت الطارق فأعادت سؤالها :

– من أنت ؟! اجبني.

جاءها الرد صوت طرقات قوية وهي تردد في خوف شديد .

– من أنت ؟ .. من بالخارج ؟!

والطرقات تتواصل الي أن قالت :

– لن أفتح الباب حتى أعرف من أنت ؟

فجاءها صوت ناعم تعرفه جيدا قائلاً :

– أنا سهي .. افتحى الباب .

بمجرد سماع الصوت فتحت زوجة يوسف الباب علي الفور راسمة علي وجهها ابتسامة عريضة وقد ذهب عنها الخوف .. ولكن الخوف لم يذهب بعيدا فقد عاد إليها مسرعا وانكمشت ابتسامتها وهي ترى الطارق فقالت :

– من ؟! .. أبو الأخبار !! ماذا تريد ؟!

تطلع إليها أبو الأخبار في حدة ولم يجيبها فأعادت تساؤلها بهدوء :

– ماذا تريد يا أبو الأخبار؟

ثم بحدة قالت :

– وكيف تجرؤ علي طرق باب الدار في هذا الوقت وتقلد صوت الست " سهي " إنك عديم الأخلاق .. ولسوف أخبر العمدة غدا بما فعلته أيها الـ ..

ثم جحظت عيناها وسقطت علي الأرض والي جوارها سقطت لمبة الجاز التي انفجرت وأمسكت النيران بالمرأة ثم بالدار كلها....

بينما كان أبو الاخبار يسير في الخارج عائدا بخطوات سريعة ثابتة قوية ممسكا بيده اليمني قلبا مازالت الدماء تنزف منه.

****

وبعد عدة ساعات كان الرجال يحاولون جاهدين إطفاء النيران التي نشبت بدار يوسف الجرايحي وقد تمكنوامن إطفاء النيران وإخراج الطفل الصغير الذي تشوه جزء كبير من جسمه بينما تفحمت أمه تماما فى حين كان أبو الاخبار يذيع الخبر في القرية :

– يا أهل البلد .. يا أهل البلد منزل يوسف الجرايحي احترق وتوفيت زوجته يا أهل البلد!

****

ازدادت الصراعات الشرسة بين الكلاب وراحت اعداد كبيرة منهم تتساقط صريعة ومع زيادة الكراهية بينهم بدأت أعدادهم تقل حتى أوشكوا علي الإنقراض . . لا بد من وجود الحب بينهم ليحافظوا علي جنسهم ولكن من أين لهم بالحب وهم . . بلا قلوب.

****

أعطت الضوء الوردي اذا فقد وضع إصبعه علي " الكلب الأصغر " ثم اعطت الضوء الأخضر لانه وضع إصبعه علي " نعيم " ....

طرق دهشان حجرة د. نعيم في خوف شديد – فالدكتور نعيم لا يتردد في ايذاء من يطرق باب حجرته – وبعد فترة ليست قصيرة خرج د. نعيم وتطلع لدهشان بحدة قائلا ببرود شديد.

– ماذا تريد ؟

دهشان بارتباك :

– ليس أنا إنما الست سهي .

إلتفت د. نعيم نحو سهي قائلا ببرود أشد :

– ماذا تريدين ؟

– أريدك أن تأتي معي لمنزل " أحمد أبو عطية".

دكتور نعيم:

– اخبرتك من قبل بأنني لا أخرج من الوحدة الصحية نهارا مهما كانت الأسباب

سهي بهدوء :

– ولكن ابن يوسف حالته خطرة جدا ولا نستطيع نقلة الي هنا فهو بين الحياة والموت

ببرود:

– إذاً دعوه يموت .

سهي بتوسل شديد شبه باكية :

– أرجوك يا دكتور نعيم .....

دكتور نعيم :

– عفوا لا استطيع .

سهي بدهشة :

– أى بشر أنت الذي ترفض إنقاذ حياة طفل صغير ليس إلا لأنك لا تحب السير نهارا لأن الضوء يرهق عينيك.

بدا دكتور نعيم كأنما لم يسمع شيئا عندما عاد لحجرته وأوصد بابها بإحكام ، وإنهمك في العبث بأجهزته الدقيقة وخريطته الغريبة تاركا سهي تقذفه ببعض الشتائم المثقفة

****

وفي منزل أحمد ابو عطية المجاور لمنزل يوسف كان هناك عددا قليلا من الرجال يجلسون بحجرة داخلية تمدد في أحد أركانها الطفل الصغير ابن يوسف الجرايحي الذي بدا كمخلوق آخر بعدما تجولت النيران في كل اجزاء جسمه .

بينما كانت سهي تتحدث مع أبيها في ردهة الدار والأخير يرد :

– كيف رفض الحضور الي هنا إبن الـ (.....) من يظن نفسه هذا الـ (....) .

قال أبو الأخبار وهو يجلس علي الأرض الي جوار مقعد العمدة :

– إن هذا الطبيب غريب الأطوار لقد راقبته لعدة أيام ورأيت تصرفاته الغريبة ونظراته الحادة وحديثه البارد واشياء غريبة اخرى حتى شعرت بالخوف منه . أشك أنه من اصل انجليزي . ولن أدعه حتى أعرف سره ...

" علي " خفير العمدة :

– لا توجد أسرار يا أبو الأخبار كل ما هنالك أن أبناء البندر يحبون التعالي علي الفلاحين أمثالنا .

العمدة بحدة :

– ولماذا يتعالى علينا وهو لا يحمل أية القاب .

أحد الرجال :

– ماذا سنفعل الآن ؟ هل سنترك الطفل حتي يموت .

هب العمدة واقفا وهو يقول :

– بالطبع لا .. فسوف اذهب الآن للوغد نعيم وأخيره بين الحضور لمعالجة الطفل أو مغادرة القرية .

****

دكتور نعيم للعمدة في برود شديد :

– حسنا سأغادر القرية .

العمدة بدهشة :

– تغادر القرية وتترك الطفل !!

ببرود :

– لقد خيرتني وأنا اخترت .

العمدة بإنفعال :

– لماذا ؟

– لأننى اشترطت من قبل ألا أعمل نهارا إلا بداخل الوحدة.

العمدة بعطف :

– يا ولدي إن الطفل لا يستطيع المجيئ .

ببرود :

– احملوه الي هنا .

– لا نستطيع أن نحركة من موضعه ان اللحم مهترئ .

– إذن دعوه يموت .

العمدة بحدة :

– أنظر ايها المغرور لقد صبرنا عليك أكثر من اللازم ولكننى أحذرك موت الطفل معناه موتك أنت أيضا .

نعيم ببرود :

– موافق

العمدة بغيظ :

– أيها الجبان .. أغرب عن وجهي .. هيا أترك القرية .

– سأتركها في الليل .

العمدة بحدة :

– بل أتركها الآن في وضح النهار .

– لا استطيع .

– لماذا؟

– .....

– لماذا ؟ هيا أخبرني لماذا تخشي النهار؟

– لا أخشي النهار ولكننى اريد بعض الوقت لحزم متعلقاتي كما أننى أخبرتكم من قبل بأن الضوء يؤذي عيني .

أشار العمدة نحو دكتور نعيم قائلا :

– حسنا معك ما تريد من الوقت حتى الفجر بعد ذلك لا اريد ان أري هذا الجسد هنا

ثم تمتم العمدة وهو يخرج :

– إنه جسد بلا قلب.

عقد الدكتور نعيم حاجبيه بشدة وضغط بأسنانه عي شفته السفلي وقال :

– لست وحدي .. كلنا هناك بلا قلوب .. ثم ماذا تفعلون أنتم يا ذوي القلوب ؟

****

عاد الدكتور نعيم لحجرته وبدأ في العبث بالأجهزة في صمت فبدأت بعض الإشارات في الإنبعاث إليه..

ثم مرت فترة قبل أن يقول :

– لا استطيع الذهاب في ضوء الشمس... سوف ينكشف الأمر ... حسنا سأنفذ الأمر سوف أذهب.

****

عاد العمدة يتبعه الخفير " علي " الي منزل احمد ابو عطية وما أن رأي سهي حتى بادرها قائلاً :

– لقد رفض الحضور.

سهي بدهشة :

– من ؟

العمدة مستطردا وكأنما لم يسمع سهي:

– ولكننى طردته من القرية

سهي :

– من ؟

العمدة :

– فنحن لا نريد خنازير عديمة الإحساس

سهي بحدة :

– عمن تتحدث يا أبي ؟

انتبه العمدة للحدة في صوت سهي فقال :

– اتحدث عن ذلك الطبيب المعتوه .

سهي بهدوء :

– ولكنه بالداخل .

– من ؟

– دكتور نعيم

العمدة بغرابة شديدة :

– متى جاء ؟

– منذ ثوان معدودات وقد أمر الجميع بالخروج من الغرفة وتركه منفردا مع الطفل

العمدة :

– كنت أعلم انه سيأتي فهو بشر ولا يحتمل ان يكون سببا في موت طفل صغير ولكن كيف جاء ؟!

خرج دكتور نعيم من غرفة الطفل فعلاج هذا الاخير لم يستغرق وقتا طويلا ..

تعلقت انظار الجميع بدكتور نعيم الواقف امامهم كالجبل وقبل ان يحاول أيا منهم الإستفسار قال دكتور نعيم :

– لقد مات الطفل

جحظت العيون وحدقت في بعضها وشهقت سهي في حين تطلع العمدة بشدة لدكتور نعيم الذي خرج مسرعاً من المنزل قائلا للعمدة وقبل ان يهم أحد الخفر بمرافقته :

– لا أريد ان يتبعنى أحد حراسك فإنني اعرف الطريق جيدا ولا حاجة لي بالحراسة

ثم خرج مسرعا بينما غمر الصمت المكان وطال صمت الجميع طال كثيرا وكان سيطول اكثر ولكن ابو الاخبار كسر الصمت عندما قام واتجه لخارج الدار.

خرج ابو الاخبار مسرعا محاولا إقتفاء أثر دكتور نعيم ... ولكن هذا الأخير كان قد اختفي تماما عن الانظار كيف إنه لم يخرج إلا منذ ثواني ؟!

تطلع أبو الأخبار نحو الطريق الطويل الممتد الخالي تماما من الأحياء بإستثناء ذلك الكلب الأسود الذي يسير عن بعد .. أين ذهب إذن في ذلك الطريق ؟.. لم يجد " أبو الأخبار " اجابة لسؤاله فعاد مرة أخرى لمنزل " أحمد أبو عطية".

وتحت حرقة الشمس كان دكتور " نعيم " عائدا للوحدة الصحية بخطواته الحادة السريعة الثابتة وقد افترش ظله الرمال .

****

٦– القلوب :

أوشكت الكلاب علي الانقراض فبزيادة الكراهية بينهم ازدادت أعداد القتلي لابد أن يحافظوا عي جنسهم . . . لابد من وجود الحب بينهم ولكن كيف وهم مخلوقات . . . . ؟ بلا قلوب .

****

بدا العمدة كثور هائج يصرخ في وجوه الخفر الذين وقفوا صفا امامه في قاعة داره مثبتين انظارهم تحت أقدامهم وكان شيخ الخفر يتصبب عرقا بينما انكمش ابو الاخبار الي جوار العمدة والأخير يقول صارخاً:

– ماذا حدث لقريتنا هل لم تعد تصلح للحياة ام إنكم لم تعودوا تصلحوا للحراسة .. ماذا حدث؟!

جرائم القتل تتوالي الواحدة تلو الاخرى والسفاح يتنزه في القرية كما يشاء يسرق القلوب التي تحلو

له ويحرق منزل إمرأة مسكينة ويقتلها وشيخ الخفر مشغول بزوجته الجديدة بينما خفره في سبات عميق .

شيخ الخفر مقاطعا في هدوء:

– ياحضرة العمدة إن الـ ...

العمدة مقاطعا بحدة مقلدا صوت شيخ الخفر :

– إن الشرطة بنفسها تحقق في هذه الجرائم ولم تصل بعد للفاعل .

ثم بصوته الطبيعي:

– أليس هذا ما تريد قوله .. لا يهمنى شئ ولسوف أمهلكم ثلاثة أسابيع بعدها إما أن تسلمونني القاتل أو تسلمونني أسلحتكم.

شيخ الخفر :

– ولكن ثلاثة اسابيع ليست كافية ....

العمدة مقاطعا :

– بل كافية جدا فالضحايا تتساقط من الحين للآخر والأمر لا يحتاج الانتظار أكثر من ثلاثة أسابيع .

شيخ الخفر :

– ولكننا لا نعرف كيف ولا من أين نبدأ ؟

العمدة :

– هذا عملكم انتم . فكروا فيه كيفما شئتم .

أبو الاخبار :

– أرى أننا يجب أن نبدأ من مراقبة تحركات ذلك الطبيب الذي يدعي نعيم فأنا علي ثقة أنه ...

قاطعه العمدة :

– كفي يا أبو الأخبار فلا تجعل كراهيتك له تؤثر علي تفكيرك.

– ولكننى واثق أنه ....

العمدة بحدة :

– قلت كفي .

– أنه .

العمدة بصرخة جعلت ابو الاخبار ينتفض:

– قلت كفي .

وهنا تدخلت سهى قائلة :

– دعه يا أبي يواصل حديثه فأنا مثله تماما أشك في ذلك المدعو نعيم .

العمدة:

– لا يا ابنتي .. صحيح ان هذا الرجل غريب بعض الشئ ولكن هذا لا يعني ابدا انه وراء تلك الجرائم فهناك مجرم آخر لم نتوصل إليه بعد .

شيخ الخفر:

– سنتوصل إليه ان شاء الله .. سنتوصل اليه .

العمدة

– وقبل ثلاثة اسابيع من اليوم .

****

وفي غرفته الخاصة وامام الخريطة الغربية والأجهزة الأغرب كان دكتور نعيم يستقبل رسالة لاسلكية قائلا :

– نعم .. نعم .. سأنفذ ..... من .. من .. نعم سأنفذ .

نعم .. المزيد.. نعم سأنفذ .

نعم .... سأنفذ .

وبالخارج كان هناك شاب أعجزه المرض يستند علي كتف زوجته التي تحاول ان تعينه علي السير والدخول به للوحدة الصحية ...

سارع دهشان الي مساعدة المرأة قائلاً:

– هوني عليكي يا أم احمد هوني عليكي .

تركت المرأة زوجها لدهشان ليتولي أمره وهي تدعي له دعوتين بعمار بيته وصلاح أحواله وأن يبعده الله علي أولاد الحرام و .... و....

خرج دكتور نعيم من غرفته وفي عجالة فحص الرجل ثم قام بإعطاءه بعض الحقن والأدوية وتولي دهشان مساعدته في العودة لمنزله .

ومع دخول " سهى " للوحدة الصحية ارتسمت عي شفتي دكتور " نعيم " ثاني ابتسامة له منذ ان دخل القرية جعلت " سهى " تندهش بعض الشئ ولكنها تلاشت ذلك وهي تصوب سهم الاتهام نحو دكتور نعيم قائلة بعصبية مكتومة:

– اريد ان اسمع دفاعك عن نفسك .

ذابت الابتسامة في لحظة وعاد الجمود سريعا لملامحه وهو يقول :

– لم ارتكب جرما حتى ادافع عن نفسي .

– اذا اخبرني ماذا يحدث في القرية ؟!

ببرود:

– فلتسألي والدك فهو العمدة ولست انا .

– ابي لا يريد ان يتهم احدا بدون ادلة .

– حسن ما فعل .

– ولكننى اتهمك .

ببرود قال :

– وهل معكي أدلة ؟!

– لا ولكننى سآتي بها .

دكتور نعيم بحزم وهو يشير بسبابته نحو الباب :

– حسنا إذهبي وأتي بها .

تلاشت سهى طرد الطبيب لها وتساءلت :

– هل تستطيع ان تخبرني لماذا بدأت هذه الجرائم بعد ان وصلت قريتنا؟

بإستهزاء :

– لقد جئت القرية والجرائم كانت تتوالي أتذكرين يوسف الجرايحي؟

– نعم اذكره . واذكر أنه قتل قبل مجيئك .ولكننى اذكر أيضا انه قتل بطلق ناري أى أن طريقة قتله مختلفة عن الطريقة التي أطاحت بعدة قتلي تساقطوا بعد مجيئك والذين انتزع منهمالقلب بحرص وفن ومهارة طبيب.

نعيم ببراءة شديدة :

– ولكننى لم اقتل يا أنسةسهى صدقيني .. لا استطيع ان اقتل فأنا إنسان وليس كلب !!

إندهشت سهى من عبارته الاخيرة ولكنها استطردت :

– اذا عليك ان تثبت لي براءتك .

نعيم بعصبية :

– أثبتى انت إنني مذنب .. ألا تقولون إن المتهم برئ حتى تثبت إدانته . صدقيني يا سهى إننى منزعج أكثر منك بشأن ما يحدث فمن يدري قد يكون دوري القادم وتجدونني جثة هامدة منزوعة القلب بين الزراعات.

رفعت سهى حاجبيها بإستهزاء وقالت بدهشة مصطنعة :

– حقا .. أتخاف الي هذا الحد ؟

دكتور نعيم:

– أتعلمي إنني بعد كل جريمة كنت أعقد العزم علي العودة الي القاهرة ولكننى عندما أتخيل حال المرضي من بعدي أعاود الرأي.

سهى :

– أية مرضي يا دكتور " نعيم " ... إنك لا تهتم بأي مريض عندنا ان كل سكان القرية اشتكوا منك ومن سوء معاملتك ...

دكتور نعيم صارخاً :

– أظن أن هذا كاف جدا .

سهى :

– حسنا سأنصرف الآن ولكننا سنتحدث مرة أخرى.

****

إنه أحدهم . . أحد الكلاب . . جاء ليأخذ القلوب .

****

وفي حجرة رشاد بالطابق العلوي بدار العمدة كانت سهى تعطي رشاد درسا بل دروسا في كل شئ فهذا الرشاد يفتقد من العقل مالا تفتقده البهائم وسهى تواصل في صبر تحسد عليه...

– يا رشاد ما العمر إلا لحظات قليلة بعدها يأتي الموت بلا رحمة بلا تمييز بلا تردد.

رشاد ببلاهة:

– تحدثينني عن الموت وانا لم اتخطي بعد السادسة والعشرون .

سهى بذهول:

– يا رشاد إن الموت لا يفرق بين كبير وصغير ولكل أجل كتاب.

رشاد متعجبا بغباء:

– كتاب!!

سهى :

– اقصد ان كل شئ وله اجله اي ميعاده الذي ينتهي فيه فنحن البشر أأ...

رشاد بصوت مرتفع:

– إحنا فين والموت فين لسه بدري علينا .

– يا رشاد ان الموت يحوم في قريتنا وعليك ان تلحق بنفسك قبل ان يلحقها الموت إن الدكتور نعيم يسعي في القرية فسادا يقتل بلا رحمة بلا شفقة بلا انسانية وإن لم تتحد القرية وتتصدى له فإن الموت سيكون مصير الجميع.

– وكيف عرفتي أنه القاتل؟!

– لا شأن لك بذلك...

توقفت سهى فجأة أثر سماعها لصوت طرقات خفيفة علي باب الحجرة دخلت بعدها إحدي السيدات التي تخدم في الدار واقتربت من سهى قليلا ثم قالت:

– إن الدكتور نعيم بالأسفل يجلس مع العمدة .

جحظت عينا سهى بعدما هبت واقفه وقالت:

– تقولين من ؟

السيدة وهي تمط كلماتها:

– الدكتووور نعيم يجلس بالأسفل مع العمدة .

رشاد:

– وما الذي أتي بهذا القاتل؟

سهى:

– انتظر يا رشاد .

ثم تطلعت الي المرأة وقالت:

– متى جاء ؟!

– منذ فترة طويلة وهو يتحدث مع العمدة في أمر يبدو أنه هام جدا .

اندفعت سهى للخارج بينما استلقي رشاد علي السرير مطلقا زفيرا قويا .

****

العمدة لـ " سهى " التي جلست بجواره منذ دقائق:

– " ..... وهذا كل ما في الامر الدكتورنعيم يطلب الزواج منك ويريد ان يعرف رأيك وأنا كذلك".

سمعت سهى ما تمنته فكست الحمرة وجهها وابتسمت وهي تتطلع لأسفل قائلة :

– الرأي لك يا أبي.

ثم اندفعت سهى بسرعة الي أعلي بينما جلجلت ضحكة العمدة قبل ان يقول :

– هذا هو ردها الموافقة بالجري لأعلي .

دكتور نعيم :

– وما رأيك أنت؟

العمدة:

– طبعا موافق فأنت خير .....

– ولكننى لست موافقا علي هذا الأمر .

جاء هذا الصوت من رشاد وهو يهبط درجات السلم ملوحا بيده قائلا:

– كيف توافق يا أبي علي رجل لا نعرف من أهله ؟ من أقاربه ؟ من .....

العمدة بحدة :

– اخرس أيها الجبان ... كيف تعقب موافقتي بالرفض .

رشاد :

– إن الـ....

بحدة :

–قلت اخرس أيها الجبان .

اندفع رشاد نحو غرفة أخته سهى فوجها جالسة علي سريرها متحضنة وسادة بيضاء وقد ارتسمت ابتسامة السعادة علي شفتيها فبادرها قائلاً:

– هل ستوافقين علي ذلك السفاح الـ..

سهى مقاطعة :

– رشاد ... احذر استعمالك لألفاظك .

– إنه ....

– ولا تندفع في كل شئ كالـ....

رشاد بغرابة:

– سهى !!! .. ماذا حدث لك ؟ هل غيرتي أفكارك عنه ؟ ألم تخبريني منذ دقائق بأنه القاتل؟!!

– كانت هذه إشاعة كنت أحاول ترويجها.

– لما ؟

– لقد استفزني ذلك الطبيب فحاولت أن ألحق به أي مشكلة أما الآن فإنني ...

ثم صمتت وابتسمت في نشوه بالغة قبل أن تقول:

– أما الأن فإنني أسعد مخلوقة.

****

٧– الوجوه :

وبعد الغروب وفي منزل " محمد المصري " كان رجل البيت يتناول العشاء في نهم شديد والي جواره تجلس زوجته حاملة نعيم الصغير وامامه تجلس أمه مرتدية جلبابها الأسود البالي كانت الأم قد أمسكت بقطعة من الخبز وشرد ذهنها شرد بعيدا مع تشكل وجهها بتجاعيد الحزن ولم يلحظ ذلك أحد ومحمد المصري ليس له إلا أن يقول لزوجته وهو يلقي بالطعام في ثغرة الكبير :

– كلي ... كلي يا أم نعيم كلي عشان الواد .

وزوجته تردد بكلمات ممطوطة :

– ما أنا باكل أهووه ...

والمرأة الحزينة اعتصر الألم قلبها على فقدان ابنتها فأوشك أن يوقفه ... إلي أن قال محمد المصري لأمه :

– لماذا تتطلعين الي الطعام فقط يا أمي ؟! ... لماذا لا تأكلين؟!

ألقت الأم قطعة الخبز الصغيرة أمامها بلطف ثم هبت لتواري دموعها بعيدا فإندفع ابنها وراءها قائلا:

– ماذا دهاك يا أمي؟

الام بكلمات متحشرجة من البكاء:

– سعدية .. لا استطيع أن أضع الطعام في فمي وأنا اعلم أنها دفينة التراب.

ثم وبنبره مليئة بالنواح:

– يا لحسرة قلبي عليكي يا ابنتي يالحزني عليكي .

محمد المصري صارخا :

– كفاك يا أمي إنها لا تستحق البكاء .

– لا تقل هذا يا ولدي .

– بل سأقوله ... وسأقول إن الله أرسل من يقتلها قبل ان أقتلها بنفسي تلك اللعينة التي لوثت سمعتنا ووضعت وجوهنا في الطين.

الأم باكية :

– لا تصدق كلام الشرطة يا ولدي .... ان اختك اشرف بنت بالقرية كلها .

– كفاك يا أمي ... تدليلك لها وتركك إياها تغدو وتروح كما تشاء جعلها تقع في الخطأ

– ليس صحيحا ما قالوه يا ولدي.

– إن الشرطة هي التي قالت ذلك .

– إن الشرطة تخدعنا .

– بل مشاعرك يا أمي هي التي تخدعك ، ما مصلحة الشرطة في خداعنا وما مصلحة الطبيب الشرعي في ان يقول انها ماتت غير عذراء.

– مصلحتهم أن يلوثوا سمعتها.

– كفاك يا أمي ...

الأم باكية بحرقة شديدة :

– بل كفاك أنت ... إنك لم تهتم بها من قبل كما لو لم تكن أختك ... هيا هيا إذهب لزوجتك الغندورة وابنك المحروس ودعني أحزن وحدي.

لم يجد محمد المصري كلمة يرد بها فعاطفة الامومة قد غشت الأم تماما فأعمتها لذا لم يجد الرجل سوى الخروج من الدار مندفعا الي الخارج وزوجته تلاحقه ببضع كلمات ممطوطة:

– الي اين ستذهب ؟ ... إن الليل قد أغشي القرية ... الي اين ستذهب ؟

اندفع محمد المصري مسرعا دون ان يرد علي كلمات زوجته او بكاء أمه الذي ازداد.

كان محمد المصري يسير بخطوات حادة مسرعة يسير ويسير بلاهدف بلا غاية كان يريد ان يقضي الليل كله سائرا كان يريد ان يخرج من حزنه .. كان يريد ان يخرج من قلبه اوجاع واحمال ثقيلة جدا كان يريد محو كل شئ من قلبه وعقله معاً ....

" سعدية .. من فعل ذلك بها .. إن المجرم قتلها مرتين ولكننى لن ادعه .. لن أدعه " . كانت الرياح تتجول الي جواره مطلقة صفيرا شديدا مرعبا ومحمد المصري يسير ويسير بلا هدف . توشك دمعة ان تنهمر ولكنه يمنعها فسقوط دمعة سوف يجر وراءها العديد وهو يأبي أن يبكي .. ولكننى سأنتقم سأنتقم .

سار كثيراً جدا طاف القرية كلها مرتين او ثلاثة .. وساعة قبل أن ينتصف الليل ... وهو يسير وحده لا أحد في طرقات القرية غيره .. يواصل سيره ، بدت خطواته كخطوات دكتور نعيم حادة مسرعة بلا كلل بلا ملل .. يجب الا يعود للدار قبل ان يفرج حزنه وكربه يجب أن يسير ... يسير كثيرا ويدور في أنحاء القرية كما تدور به الدنيا الآن .

كان محمد المصري يجول انحاء القرية كلها .. فهو الأن يسير علي شاطئ الترعة وفي نفس الوقت يسير امام الوحدة الصحية وهاهو محمد المصري يمر من أمام بيت العمدة .. كما يسير في اللحظة نفسهبجوار الساقية المهجورة ... في نفس الزمن يسير محمد المصري امام مقهي المرحوم عوض ويسير الي جوار الكوبري الخشبي.

ظل محمد المصري يسير ومحمد المصري يسير كان محمد المصري يسرع الخطي ومحمد المصري يسرع الخطي مثله كم سارا؟! .. لا ندرى إلا أن استوقف محمد المصري صوت من خلفه قائلا:

– محمد يا مصري .. لماذا تسير في هذا الوقت المتأخر مسرعاً؟

تطلع محمد المصري خلفه فوجد رشاد . لم يرد محمد المصري فقط استدار في مواجهته ونظر اليه ورشاد يردد:

– ما الذي يجعلك تسير هكذا منفردا؟

لم يرد محمد المصري وراح يقترب منه والشرر يتطاير من عينيه ورشاد يثرثر:

– ماذا عساك يارجل .. لماذا لا تجيبني ؟!

اقترب محمد المصري اكثر من رشاد والآخر علي نغمته:

– الي اين تذهب ؟ .. أجبني يا رجل .

اقترب المصري اكثر حتى اصبح الفارق خطوة واحدة او اقل ورشاد يقول:

– لماذا تقترب هكذا أيها الاصم الابكم ولا تجيبني الا تدري من انا .. أنا رشاد بيه ابن العمـ.....

وهنا كان رد محمد المصري فقد انسلت يده وامتدت لتغوص في صدر رشاد لتحطم ضلوعه وتخرج بقلبه أمسك محمد المصري بقلب رشاد وتطلع إليه في برود شديد ثم سار تاركا خلفه جثة صماء لرشاد.

كان يسير بلا هدف بلا غاية بدون كلل بدون ملل كان يريد ان يفرج عن حزنه وكربه كان يسير بلا أية مشاعر خارجية فلا الظلام ولا الصقيع لهم أدني تأثير عليه إلا ان ذلك الرجل المقبل نحوه لفت انتباهه فحاول محمد المصري التعرف عليه ولكن الظلام دامس .. انتظر حتى اقترب ولكن ملامحه لم تظهر بعد اقترب واقترب .. ولكن من هذا ؟.. بل ما هذا الشئ المقبل نحوى؟! مستحيل إنه ... إنه أنا مستحيل!!!

تسمر جسد محمد المصري مكانه وزاغت عيناه دهشة وغرابة وهو يرى محمد المصري مقبلا نحوه ثم نقل محمد المصري القلب من يده اليمنى ووضعه في يده اليسرى وصوب قبضته الصاروخية نحو قلب محمد المصري وانتزعه بشده . ثم اتجه محمد المصري نحو الساقية المهجورة وأخرج منها أسطوانتين زجاجتين كبيرتين ووضع قلبا بكل واحدة ثم وضعهما الي جوار الساقية .قبل ان ينتصب واقفا فإذا به يصبح الدكتور نعيم وبخطواته الحادة السريعة المرعبة كان يسير مرة أخرى عائدا للوحدة الصحية وبعد ما يقرب من نصف الساعة خرج دكتور نعيم مرة أخرى بنفس خطواته الحادة السريعة حاملا عدة اسطوانات زجاجية متوسطة الحجم بداخلها قلوب بشرية متصلة من الداخل بأنابيب غريبة الشكل تجعلها تنبض بشكل طبيعي جدا وعند الساقية المهجورة وقف دكتور نعيم علي مقربة من أحد الرجال له ملامح باردة مقاربة من ملامحه .

قال الرجل في برود شديد :

– أين القلوب ؟

اقترب دكتور نعيم اكثر من الرجل ثم وضع الاسطوانات الزجاجية ارضا وقال في برود:

– هاهى القلوب .

الرجل :

– ماهذا ياكلافين ! انه عدد قليل جدا .

ثم حمل الرجل الأسطوانات وسار في برود نحو مركبة صغيرة الحجم وعندما اقترب منها فتحت بوابة صغيرة بها فوضع بها القلوب .

ثم تحول هذا الرجل الي كلب ونظر نحو دكتور نعيم قبل ان يقفز لداخل المركبة التي انطلقت به لاعلي في الفضاء فى صمت شديد ودكتور نعيم يلوح بيده مودعا وهو يقول:

– فليحيا كوكبنا .. فليحيا كوكبنا الكلب الأصغر...!!

****

وفي طريق عودته للوحدة الصحية مرة أخرى كانت هناك ضحية جديدة تصادف مرورها في ذلك الوقت ....

يا أهل البلد عوض صاحب المقهي قتل بنفس الطريقة يا أهل البلد ... يا أهل البلاااد.

****

وفي الصباح الباكر وصلت القرية قوة كبيرة من رجال الشرطة يرأسهم حكمدار محافظة الغربية .. لاجراء التحقيقات علي تلك الظاهرة الغريبة المرعبة التي حلت بقرية " الدمشطة "

فالشرطة التي نزلت بدار العمدة قد استدعت العديد من رجال القرية وظل الصاغ " علي الخولي " يستمع في صبر شديد لأقوال الرجال وأرائهم فيما يحدث في قريتهم وبعدما قضي أكثر من ثلاثة ساعات متواصلة في التحقيق مع العمدة الذي قال انه من أكثر المندهشين بما يحدث في قريته المعهودة بالهدوء .. ثم جاء دور ابنته " سهي" التي استنكرت كل ما يحدث واستبعدت تماما ان يكون الفاعل من سكان القرية بل الأرجح أنه سفاح هارب يختبئ في الزراعات في مكان ما و ... ثم ... كما ...

وتوالت التحقيقات مع اهل القرية فأحد الخفر ذهب لإستدعاء السيد أبو خليل وبعد فترة ذهب لإستدعاء حسين ابو وهدان ثم خرج الرجلان وذهب الخفير لإستدعاء رجل آخر وتبعه بأخر .. ثم الشيخ محمد وأخرون ... وأخرون . كان الخفير يذهب لإستدعاء الرجال بلا كلل إن الامر جد خطير .. جد عسير.

ورجال القرية يتوالون علي بيت العمدة وبعد مناقشة حادة وطويلة يعودون مرة أخرى لديارهم.....

وجاء دوره ... نعم جاء دوره ... وذهب احد الخفر للوحدة الصحية لإستدعاءه لبيت العمدة...

الخفير للدكتور نعيم الذي بدا القلق علي وجهه عقب سماعه لطلب استدعاءه :

– هيا يا دكتور نعيم اسرع فوقت الحكمدار ضيق للغاية

دكتور نعيم :

– حسنا اذهب انت وسوف ألحق بك .

الخفير :

– ممنوع .

دكتور نعيم بغرابة :

– ما الممنوع؟!

– ممنوع ان اعود بدونك .

– لن تعود بدوني فسوف ألحقك بـ..

– ممنوع ... يجب أن تأتي معي الآن .

تطلع دكتور " نعيم " الي الخارج وعقد حاجبيه بشدة فالشمس تتوسط السماء والسير في هذا الوقت سوف يعكس ظله .

حدق الدكتور " نعيم " بشدة في عين الخفير ثم قال له:

– أعدك انني سوف اكون في بيت العمدة قبل ان تعود اليه .

– ممنوع .

لاحظ دهشان ان دكتور نعيم لا يريد ان يذهب مع الخفير فقال :

– بصراحة إن الدكتور لا يستطيع السير نهارا لأن الضوء يؤذي عينيه .

الخفير :

– ممنوع فأنا لدي اوامر مشددة .

دكتور " نعيم " بحدة:

– ألا تحفظ نغمة اخرى غير ممنوع؟!

الخفير بغباء :

– ممنوع .

دكتور " نعيم وهو يضغط علي اسنانه :

– انظر أيها الآلة انني غير مجبر علي المجئ معك وان كنت قد وافقت فإننى فعلت ذلك بمحض اختياري .

الخفير:

– ولكنك اذا لم تأتي معي فلسوف اضطر الي استخدام القوة معك و ....

وهنا هوت صفعة صاروخية من كف نعيم علي وجه الخفير الذي ارتعد ليس من قوة الضربة ولكن من عبارة دكتور نعيم التي تلت الصفعة :

– ألا تعرف من أنا أيها الصعلوك ؟! ألا تعرف من أبي ؟! إذهب وأخبر الحكمدار أن دكتور نعيم ابن شوكت باشا عثمان يرفض الحضور .. هيا أيها الحيوان.

انتفض جسد الخفير وشعر بالرعب الشديد بعد ما سمع اسم شوكت باشا عثمان فهو وإن كان لا يعرف شوكت ولا يعرف عثمان إلا انه يعرف جيداً معنى كلمة باشا.

شعر الخفير أنه ارتكب ذنبا كبيرا فحاول الاعتذار ولكن كلمات دكتور نعيم كانت حاسمة .

دكتور نعيم بسخرية:

– هل ستتطلع اليّ كثيراً؟

الخفير بهلع شديد:

– لا .. لا سأذهب الأن .

في هذه اللحظة كانت التحقيقات تدور مع وزير اعلام القرية السيد"أبو الأخبار" والذي شرح لرجال الشرطة تاريخ القرية الجنائي كله .. والعديد والعديد من الاحداث والذي عندما سئُل عمل يكون الفاعل أجابها صريحة:

– إنه الدكتور نعيم .. نعم الدكتور نعيم خذوه حققوا معه اسجنوه وعذبوه الي ان يعترف ذلك السفاح ولكن اجابة ابو الاخبار هذه لم تعجب الصاغ " علي الخولي " الذي قال :

– وكيف تأكت أنه السفاح ؟!

ارتبك ابو الاخبار قليلا ثم قال :

– إنه شعورى .. وشعوري لا يخدعني ابدا.

****

وفي منزل العمدة كان دكتور نعيم يجلس امام عددا من رجال الشرطة يرد علي اسئلتهم المبدئية :

– دكتور نعيم شوكت عثمان ابن شوكت باشا عثمان.

تطلع رجال الشرطة بعضهم الي بعض في قلق قبل ان يقول المحقق:

– عرفنا انك طبيب الوحدة الصحية بالقرية .

– نعم

– وان لك اسلوب خاص تتبعه في علاج مرضالك .

– نعم فالمرضي من أهالي القرية يهملون في حق أنفسهم لدرجة لا تطاق

– امممممم.

صمت المحقق وامامة لوح ثلج صامت ايضا الي ان قال المحقق :

– حتى لا نطيل عليك يا دكتور " نعيم " نود ان نستمع لاراءك فيما يحدث بالقرية

– ليس لي آية اراء فهناك عدد كبير من الجرائم قد تم ولا أعرف من الفاعل .

المحقق:

ولكننا نريدك أن تخمن ... من قد يكون الفاعل ؟

– لا ادري .

بهدوء :

– خمن فقط .

– قلت لا استطيع .. اذا كنتم تستطيعون ذلك فإفعلوا .

– للأسف فإننا لم نستطيع التخمين حتى أأ ....

مقاطعا ببرود:

– اذاً وكيف لي ان افعل اذا كان رجال الشرطة لا يستيطعون

الصاغ " علي الخولي " ببساطة :

– يوجد شخص يدعي مكرم عبد العال " الشهير بأبو الأخبار " إتهمك بأنك مرتكب تلك الجرائم ببرود:

– وهل صدقتم " عبيط القرية " هذا .

– بالطبع لا ولكن ...

– ولكن ماذا ؟! اري إنكم قد اضعتم جزءا كبيراً من وقتي ووقتكم لذا اسمحوا لي بالإنصراف.

هبّ دكتور " نعيم " واقفاوقال بأدب :

– اتسمحوا لي بالعودة فهناك العديد من المرضي .

لم يجد المحقق سوى القبول وقبل ان ينصرف دكتور نعيم خارجا تطلع وقال للمحقق:

– إنني لا أحب الظلم ولكننى سأعطيكم خيطاً .

اعتدل الجميع وكتموا انفاسهم عن أخرها قبل ان يقول دكتور نعيم:

– أبو الاخبار ... لا أقول ذلك لأرد تهمة بتهمة ولكننى علي يقين بأنه الفاعل .. لقد قلت ذلك من قبل لمساعدى دهشان إسألوه لتتأكدوا.

****

كانت الشمس في قمة توهجها وقد افترشت الظلال الارض عاكسة بوضوح الشكل الحقيقي لكل شئ ، لذلك كان دكتور نعيم يسير عائدا للوحدة الصحية بعد انتهاء التحقيق بخطواته السريعة ، السريعة جدا حتى لا يصادفه احد فيرى ظله . كان دكتور نعيم يسير عائدا للوحدة الصحية والى جواره يفترش ظله الأرض كان ظله ليس ظل لانسان بل ظل لكلب يسير بنفس خطواته الحادة المسرعة .. كانت خطوات نعيم متطابقة تماما مع خطوات ظله ولحسن حظه فإن الطرقات كانت خالية تماماً فأهالي القرية البسطاء قد انكمشوا بديارهم وكتموا أنفاسهم بمجرد سماعهم لخبر وصول رجال الشرطة...

كان دكتور نعيم يسير بسرعة شديدة رامياً طرف عينه من الحين للآخر نحو ظله .. ظل الكلب الذي يسير الي جواره ... كان يسير علي الطريق وإلي يساره الترعة ... كان يتطلع حوله في لهفة ورعب كأنه لص .... لا أحد .. القرية كلها انكمشت سوى من هذا الرجل الذي يسير عن بعد كبير .. لن يراه بالتأكيد.

كان يسرع ويسرع وقد شعر أن المسافة من بيت العمدة الي الوحدة الصحية كما لو تكن آلاف الاميال ولكن رويدا رويدا بدأت الوحدة الصحية تظهر عن بعد .... حسنا لا أحد في طريقي إليها.

وأخذ دكتور نعيم يقترب ويقترب من الوحدة الصحية ولكن .. ولكن .... هناك شخص قريب مني يتتبعني من هو !! وقف دكتور نعيم واستدار للخلف وتطلع بنظرة كاشفة لكل ما حوله فلم يرى

شيئا .. حاول ان يعاود اسير ولكن هناك شخص ما يرقبه إن حاسة الشم لديه لا تخدعه أبداً ..... من الذى يراقبني ؟! لا يظهر احد ثم استدار نعيم جانبا وتطلع نحو جذع شجرة ضخم علي يسار الطريق ان رائحة بشرية تنبعث من خلف هذا الجذع وعلي الرغم من تأكده بأن هناك من يقف خلف الجذع إلا أنه واصل سيره نحو الوحدة الصحية ولكنه فجأة وفي حركة حادة مباغتة استدار وتطلع نحو الشجرة مرةأخرى فلم يستطيع ابو الاخبار ان يختبئ ثانية فحركة دكتور نعيم كانت سريعة جداً .... رأه دكتور نعيم تلاقت أعين كلاً منهما .. نظرات نعيم الحادة الغضبة مع نظرات أبو الأخبار الخائفة التي رأت الظل إنه أغرب من كابوس .. رجل .. إنسان .. بشر له ظل حيوان كلب!! إن ... الـ ... و ... هو ... اختلطت الكلمات في وجدان أبو الاخبار الذي اطلق ساقية الرفيعتين تسبقان الريح وقدمية الحافيتين تدنسان كل شئ دون ان تشعران به .... ظل أبو الأخبار يجري ويجري وقلبه يوشك ان يتوقف رعبا .. كان يسرع ويسرع بلا هدف سوى الابتعاد عن ذلك المخلوق الغريب الذي يطارده ... ولحسن حظه فإنه كان سريعا .. سريعا جداً حتى أنه كان يتطلع خلفه من الحين للآخر فيرى ان المسافة تبتعد بينه وبين نعيم الذي يسير خلفه بخطواته الحادة محاولاً ... النيل منه . كان أبو الأخبار يجرى علي الطريق الرئيسي للقرية علي شاطئ الترعة عندما نظر خلفه فلم يجد شيئا توقف للحظات وهو ينظر للخلف ليتأكد انه لم يعد يتبعه وفي جزء من الثانية حاول ان يفكر ماذا يفعل ولكن عقله توقف تماماً تأكد أن الطريق خلفه لا يحوى أحداً ولكن أبو الاخبار شعر أن هناك من يقف أمامه لذا وفي حركة بطيئة حاول أن يكذب خلالها عقله الباطن راحت رقبته تستدير للأمام فوجده واقفا أمامه لذا وفي حركة بطيئة حاول ان يكذب خلالها عقله الباطن راحت رقبته تستدير للأمام فوجده واقفا امامه بملامحه الباردة المعتادة وإلي جانبه ظله الملعون !!

شهق أبو الاخبار برعب وجحظت عيناه ولكنه وبحركة لا شعورية إنطلق كالصاروخ عائدا للخلف ونعيم يسير خلفه بحدة مطارداً إياه .

ظل يجرى يجري مع الإلتفات من حين لآخر للخلف .. وبعد مسافة ليست قصيرة وبينما يستدير برأسه للخلف لينظر مطارده فإذا به يصطدم بشئ امامه وبسرعة توقف وتطلع لذلك الشئ فإذا به دكتور نعيم .

تراجع ابو الاخبار للخلف بسرعة وتطلع يمينا ثم يسارا ثم يمينا مرة اخرى ثم يسارا حيث الترعة وبسرعة شديدة كان هذا هو قراره لقد قفز في الترعة وظل يسبح ويسبح في هلع شديد الي أن وصل الي الجانب الاخر .. وصل والمياه تتساقط منه من كل جانب فتطلع خلفه فوجد نعيم لا يزال واقفا مكانة لم يبرحه. فاندفع ابو الاخبار في الجانب الآخر من الترعة نحو الزراعات وظل يجرى ويجرى غير مبالي بما تحت قدمية من الزراعات الصغيرة كان هدفه الوصول إلي حسين ابو وهدان الذي يظهر عن بعد في ارضه ممسكاً بفأسه مجداً في زراعة ارضه ... لا بد أن

يسرع اليه فلا يوجد غيره الآن ... وبأسرع مما يمكن وصل ابو الاخبار لحسين .. وصل قبيل أن يتوقف قلبه حاول ان يتحدث ولكنه فشل فالإرهاق والرعب قد سيطروا علي حلقه فلم تعد الكلمات تخرج منه ولكنه جاهدا حاول ...

قال أبو الاخبار لحسين الذي لم يستدر اليه فقد ظل يجد في طعن ارضه بالفأس :

– حسين .. هه ! انقذني .. هه .. هه إن الـ هه طب .. هه يب ليس إنه هه هه .

وهنا أمسك حسين بفأسه واستدار نحو ابو الاخبار فإذا به ليس حسين بل هو دكتور نعيم انطلق ابو الاخبار مسرعاً مبتعداً عن ذلك الشيطان .. انطلق متوغلاً بين الأشجار بين الزراعات . كان كالمجنون يجرى يريد الابتعاد ... فقط الابتعاد أو حتى اللجوء لأي منزل يحتمي بأهله ولكن المنازل كانت علي الجانب الآخر من الترعة ...

ظل يسرع حتى سمع من يناديه عن بعد فلم يصدق نفسه ولكن :

– ابو الاخبار ... ياد يا أبو الاخبار .

نظر جانبا فوجد السيد ابو خليل يلوح له بيده قائلاً :

– لماذا تجرى هكذا ؟! هل من أخبار جديدة ؟!

عدّل ابو الاخبار طريقه نحو السيد الذي جاء في الوقت المناسب وعندما وصل ابو الاخبار اليه كانت قدماه لم تعد تحتملانه فسقط ارضاً راكعاً تحت قدمي السيد وبصوت منهك قال أبو الاخبار :

– سيد ... هه هه .....إن هه هه هه .

لم يقوى ابو الاخبار علي إخراج الكلمات . فقط ظل يبكي تحت قدمي السيد وبنظرات توسل ممزوجة بالبكاء رفع أبو الاخبار عينيه الدامعتين لأعلي ونظر لسيد ولكنه ليس سيد إنه هو ... هو . كيف حدث ذلك لقد رآه بعينيه كان سيد .. ليس لديه سلاح غيره العدو ... العدو بأسرع ما يمكن ....

كان يجرى الي ان يحكم الله في أمره .... وكانت القرية وكأن سكانها قد هجروها. وحدك يا أبو الاخبار في هذه الأرض يطاردك مخلوق آخر ليس من جنسك ... كان يسرع ... ماذا ستفعل معه ؟! هل ستجرى ما تبقي لك من العمر... كان يبكي بهيسترية بكاء ممزوج بالضحك ... كاد أن يسقط أرضاَ أكثر من مرة ولكن سقوطه يعني نهايته يجب أن يتحمل يجب أن يواصل العدو وإلا سيفقد قلبه .

وفجأة وجد امامه العمدة بجلبابه الرمادي المعهود وقفطانه الأسود يصرخ في وجهه قائلاً :

– أبو الأخبار .. أين كنت إن رجالي تبحث عنك في كل مكان إن رجال الشرطة يريدون منك بعض المعلومات أيها ...

ولكن العمدة توقف عن الحديث وهو يرى أبو الاخبار الذي يقف علي بعد مترات قليلة منه ينظر إليه في ذهول.

العمدة :

– أبو الأخبار ... ماذا دهاك ؟!

ولكن أبو الأخبار كان قد أوشك علي الجنون فهو لا يدرى كنه الواقف أمامه وفي براءة قال :

– هل انت العمدة ؟

العمدة صارخاً :

– نعم وهل يوجد بالقرية عمدة غيرى أيها الأبله ؟

ابو الاخبار باكياً :

– اقسم لي انك العمدة وليس دكتور نعيم .

رفع العمدة حاجبيه بدهشة وقال :

– دكتور نعيم من ؟! هل كف بصرك أيها المعتوه ؟ ألا تراني أمامك ؟

– نعم أراك ولكن .....

– ولكن ماذا ؟ هيا انطلق امامي الي بيتي حتى ننتهي من تلك التحقيقات هيا.

اقترب ابو الاخبار في يأس نحو العمدة والشك يساوره هل هو العمدة أم لا...

لا يعرف ولكنه اقترب . والعمدة يردد :

– هيا سر أمامي الي داري .

سار أبو الاخبار والعمدة يسير خلفه والمسكين لا يعرف إن كان هذا العمدة حقا أم لا.

لذا فقد إلتفت خلفه ليتأكد وفعلاً تأكد فعندما أدار رأسه للوراء لم يكن العمدة هو الذي يسير خلفه انما كان دكتور " نعيم " !! وكأنما لدغه ثعبان قفز ابو الاخبار للأمام وراح يعدو مسرعاً وقد علت أصوات صراخاته .. إن الأمر حقا مرعب ان ذلك الطبيب يستطيع أن يتشكل في صورة اي مخلوق بل والأسوأ إن ... إن ملابسه أيضا تتبدل كيف هذا .. إن ذلك يخالف الطبيعة مستحيل ... مستحيل.

جرى أسرع .. قفز لأعلي حاول أن يطير ولكنه فشل .. ألا مفر منه ؟! .. هل ستكون نهايتي مثل سعدية ورشاد وابراهيم وغيرهما ... أم ماذا ؟!!

وبصوت مبحوح يغلب عليه البكاء ظل يصرخ :

– يا أهل البلد ... يا أهل البلد ... يا أهل البلد .

ولكن ما من مجيب فلم يسمع هامش صوته أحداً وبينما كان ابو الاخبار يسارع الريح شعر بأن الأرض قد تمايلت تحت قدميه وقد اوشكت أن تطرحه علي احد جانبيها ...

ولكنه تماسك وظل يلطم وجهه بيمناه محاولا ألا يغشي عليه ... كان يصفع وجهه بقوة حينما وجد " علي " أحد الخفر قادما نحوه من المواجهة قائلا له بصوت مرتفع :

– ابو الاخبار .. اريد ان اتحدث معك في أمر ما إن العمدة يريدك ..

ولكن أبو الاخبار ما كان ليصدق أن هذا شخص آخر غير دكتور نعيم لذا فقد عاود العدو في الاتجاه المخالف وهو يصرخ فى وجه "علي" الذي كان يناديه قائلا :

– أبو الاخبار انتظر .. انتظر .

وهو يجرى :

– لن تستطيع أن تخدعنى ثانيا إنى أعرفك جيداً .. أنت دكتور نعيم .

وكالبرق انطلق أبو الأخبار مسرعاً في حين وقف الخفير " علي " مكانه وهو يحدث نفسه قائلاً :

– ماذا حدث لذلك الأبله .. يقول أنني دكتور " نعيم ".

ثم أطفأ " علي " دهشته وهو يواصل سيره قائلاً في لامبالاة :

– لعله قد مسه الجنون .

كان المسكين يجرى خائفاً من الخفير " علي " .. كان يجرى في الإتجاه الذي جاء منه ولا يفوته من لحظة لأخرى أن يتطلع يميناً ويساراً وإلي الخلف وإلي الأمام .... ولو استطاع النظر لداخله لفعل .

ظل يجري الي ان وصل الي سور إحدى حدائق الموالح إنها حديقة " حسان الشرس " لها سور من الطين . تسلق أبو الأخبار السور فلن يكون حسان أشرس من دكتور نعيم ... قفز الي داخل الحديقة وإنطلق يعدو وسط الاشجار بين القنايات يعدو ... ويعدو كانت أشجار الليمون تسلط أشواكها علي وجهه فتجرحه تارة وتصيبه بالألم تارة أخرى وهو لا يبالي .. أشواك يدنسهى بقدميه الحافيتين بعضها يمر مر الكرام والأغلب يمر مر اللئام . ينتزع الشوكة من قدمه ويقذفها جانباً ويواصل العدو ... فرع لشجرة ليمون يخدش وجنته في غلظة فتسيل منها الدماء وأبو الاخبار يجرى ويسرع في غابة الأشواك .... جري كثيرا ولم يعرف ماذا فعل ولا الي اين وصل ولكنه واصل الجري بنفس السرعة وأشجار الليمون الصماء أشواكها لا ترحم كان يندفع بسرعة للأمام مزيحاً أفرع الاشجار المتمايلة التي تعترض طريقة جانبا عندما دخل مندفعاً بشدة بصدره في يد دكتور نعيم التي وقفت أمامه فجأة فإرتشقت بين ضلوعه ثم أنسحبت بهدوء نازعة قلب " أبو الأخبار " الذي شهق بشدة وجحظت عيناه قبل أن يرتمي أرضاً جثة هامدة .. بعد ذلك جلس دكتور " نعيم " متكئاً علي ركبتيه وراح يحفر في الأرض نابشاً إياها بكلتا راحتيه في وضع أشبه لطريقة الكلاب في الحفر ثم قام بدفن الجثة .

****

جاء الليل ... ومع ازدياد قتامته انكمشت القرية كلها فوجود رجال الشرطة قد فرض حظر تجول علي الجميع حتى " كلافين " الشهير بالدكتور نعيم انكمش داخل حجرته بالوحدة الصحية ولم يعبث هذه المرة بأجهزته الغريبة إنما شرد وأطلق لشروده العنان ليتذكر كما يشاء.

راح يتذكر كوكبه " الكلب الأصغر" والذي يتبع نجم يحمل ذات الاسم ذلك الكوكب الذي كان يحوى خمسة ملايين كلب كانوا قد وصلوا لدرجة كبيرة جدا من الرقي لحضارة تفوق حضارات الكواكب الأخرى بملايين السنيين، وكيف بعدما عمر الكلاب هذا الكوكب وتفننوا وتفوقوا في شتى المجالات العلمية التى لم يصل اليها سكان الارض بعد كيف طغت عليهم الكراهية والبغضاء كيف تفشي الحقد بينهم كيف توغلت المشاحنات بداخلهم .. كيف بدأت الصراعات وازدادت الحروب وأصبح الضحايا يتساقطون يوميا بالآلاف وكلما إزدادت الكراهية ازدادت الضحايا وبعد سنوات ليست بقليلة وصلت الحروب لذروتها بعد ذلك أصبح ذلك الكوكب الراقي عبارة عن دماء وحطام وبقايا حضارة كبيرة او بمعنى آخر أصبح هذا الكوكب فضاء شاسع .. تحطم فيه كل ما كان يرمز للحضارة .. تحطم برج الإتصالات بالكواكب الأخرى .. تحطمت آله المعرفة الشهيرة .. تحطم مبني التاريخ تحطمت اعجازات الكوكب السبعة آلاف .. بالإضافة لملايين الجثث من الكلاب سكان الكوكب . لم يبقي من بقايا هذا الكوكب سوى مطار الكواكب الأخرى وأربعة آلاف وستمائة واثنين وثلاثين كلب أصبحوا مشردون يقودهم " كرابين " ذلك الكلب الذي نادي كثيراً من قبل بوقف الحروب ونبذ البغضاء والكراهية ولكن لم يستمع إليه أحد ...

****

ما تبقوا من الكلاب أيقنوا أنهم لو ظلوا علي كراهيتهم فسيكون الفناء مصيرهم أيضا لذا فقد أنصتوا أخيراً لزعيمهم " كرابين" .

****

بينما كانت ذاكرة " نعيم " تؤدي دوراً كبيراً في رأسه كان يتذكر خطاب " كرابين" الأخير الشهير الذي انصتت إليه الكلاب المتبقية وهي جالسه أمامه بالوصيد في صفوف منتظمة:

– إنني أحملكم مسئولية تعمير هذا الكوكب مثلما حمّلت من سبقوكم مسئولية تدميره .. هذا كوكبكم " الكلب الأصغر " ذلك الكوكب الحبيب الذي شهد حضارة زاهية بين الكواكب الأخرى تباغضتم فتدمر اذا تحابوا ليتعمر ... ستسألونني وكيف نحب فأجيبكم قائلاً وصلني تقريراً من أحد علماءنا يقول فيه إن هناك عضواً في أجساد الكائنات الأخرى يسمي القلب هذا العضو هو المسئول عن الحب .. وهذا العضو غير موجود بداخلنا نحن الكلاب سكان " الكلب الأصغر " .... لذاً فإننا بحاجة الي قلوب .. نحن نحتاج اربعة آلاف وستمائة واثنين وثلاثين قلبا . نريدهم

من آية كائنات في أي كوكب آخر ثم يتكفل أطباؤنا بزراعتهم في اجسادنا.... حتى يمكننا الحب والحفاظ على جنسنا.

توقف نعيم ويبدو انه شم رائحة مألوفة له فراح يشتم اكثر ولكنه لم يتوصل لشئ فقد اندثرت الرائحة فواصل تذكره و كرابين يواصل خطابه :

– السيد " كراي " أخبرني بعدة كواكب بعيدة يحمل سكانها قلوب بداخلهم ولقد اخترت كوكباً من بين هذه الكواكب ويسمي الأرض لكي نحصل علي قلوب سكانه ليس كل القلوب ولكن بما يكفي عددنا وسوف نرسل دكتور " كلافين " الي هذا الكوكب ليحضر لنا القلوب وسوف يكون " كارتين " نقطة الوصل بيننا وبين "كلافين".

ثم انتقلت ذاكرة " نعيم " أو " كلافين " الي جزء آخر بداخل إحدى الحجرات بمطار الكواكب حيث كانت تجرى له عملية التحويلات البشرية وصوت أحد العلماء يقول له:

– الآن يمكنك أن تتخذ أية صورة لكائن بشرى وأن تحول شكلك بكل سهولة.

****

لقد كانوا كثيرون . . . متحضرون ولكنهم تباغضوا . . . تنازعوا . . . تقاتلوا . . .

إزدادت الصراعات الشرسة بين الكلاب حتى أوشكوا علي الإنقراض . . لابد من وجود الحب بينهم . . . من تبقوا من الكلاب أيقنوا أنهم لو ظلوا علي كراهيتهم فسيكون الفناء مصيرهم . . .إذاً فليس أمامهم سوى الحب ولكن من أين لهم بالحب وهم . . . بلا قلوب.

****

ثم راح " كلافين " يتذكر نفسه وقد إتخذ الشكل الإنساني وهو يركب المركبة الكونية ملوحاً لآلاف الكلاب الذين جاءوا ليودعوه .. وتذكر أخر جملة قالها " كرابين " له :

– أتدري يا " كلافين " لماذا اخترت كوكب الأرض لنسرق قلوب سكانه .. لأن سكانه لا يستحقون هذه القلوب ....ولسوف تعلم ذلك عندما تذهب اليهم .

وهنا أفاق نعيم من ذكرياته فالرائحه أصبحت واضحة الآن إنها رائحته نعم ... إنه قريب.

وعندما أقترب الكلب الأسود من الوحدة الصحية وقف أمام بابها الموصد فقام نعيم علي الفور بفتح الباب له . دخل " كارتين " الوحدة الصحية في صورة بشرية فبادره نعيم أو " كلافين " قائلاً ببرود:

– لماذا جئت الي هنا إننى وضعت القلوب الي جوار الساقية؟

فأجابه " كارتين " ببرود أشد:

– جئت لأخبرك أن عدد القلوب ليس كافيا إننا نريد المزيد

– ولكن هذه المهمة شاقة للغاية.

– لا يهمنا ذلك . إننا نريد قلوباً .

تطلع إليه كلافين بكراهية ثم قال

– وأنا افعل المستحيل لإعطاءكم القلوب .

– افعل ما هو فوق المستحيل .

تبادل الإثنان نظرات البغضاء والزمجرة قبل أن ينصرف " كارتين" متخذاً صورته الحقيقية .

****

٨– نعيم برئ :

توالت الايام الصامتة علي القرية وقد رحل حكمدار المحافظة منيباً عنه قوة محدودة يرأسها الصاغ " علي الخولي" الذي أبدى قلقه منذ البداية من " أبو الأخبار" والأن أصبح شكه يقين. مر شهراً كاملاً منذ أن بدأت التحقيقات وأبو الأخبار لا أثر له في القرية لقد اختفي تماماً ولكنه لن يفلت من العدالة .. لذلك سارع الصاغ " علي الخولي " بإرسال إشارة لحكمدارية محافظة الغربية طالب بسرعة البحث عن المدعو " مكرم عبد العال " الشهير " بأبو الأخبار".

****

وفي منزل العمدة كان " السيد أبو خليل " يبدى رأيه قائلاً للعمدة في جلسة جانبية :

– إنني علي يقين مما أقول .

العمدة :

– وماذا عساني أن أفعل .

السيد بدهشة :

– ياحضرة العمدة إنني اقول أن ذلك الطبيب " نعيم " هو مرتكب تلك الجرائم.

– وماذا عساني أن أفعل ؟!

جحظت عين السيد وتدلي فكه السفلي في دهشة شديدة وقال للعمدة :

– أخبر الشرطة عنه .

– ولماذا لم تخبرهم أنت عندما سُئلت في التحقيقات ؟

تلعثم السيد وهو يلقي بعدة كلمات لم يفهم العمدة شيئا منها فأعاد سؤاله :

– هيا أجبني لماذا لم تخبرهم أنت ؟

السيد ببلاهة :

– لأنني خشيت

– خشيت الشرطة ؟!

– بل خشيت الطبيب

– لما ؟

– لأنه قاتل سفاح .. لا يردعه رادع ولا يمنعه مانع . إنني علي يقين من ذلك .

– وهل رأيت ما يدعو للشك؟

– لا لم أرى شيئاً ولكنه احساسي الداخلي ومشاعري أ ...

وهنا جاء صوت " سهى " مقاطعاً بهدوء :

– لو سنعاقب الناس بحكم مشاعرنا فلن نترك احداً .

وقف السيد احتراما لسهى التي اقتربت وأشارت له بالجلوس مرة أخرى قائلة :

– يا سيد إن المشاعر كالسراب تقودك دائما لغير الحقيقة .

السيد بخجل :

– آسف علي إتهامي لخطيبك ولكن ...

سهى بهدوء :

– إننى لا أدافع عنه بصفته خطيبي ولكن لكونه برئ فلا يصح ان نتهم رجلا غريباً يعد ضيفاً علي قريتنا بتلك التهمة الفظيعة .

– ولكنه غريب الطباع عن ....

سهى مقاطعة:

– وهل ترى غرابة طبيعته مبرراً كافياً لشكوكك .

– لا .. ولكن ارتباط دخوله القرية مع بدء حدوث تلك الجرائم يعد أمراً.....

سهى مقاطعة مرة أخرى :

– إن الجرائم بدأت قبل شهرين من مجيء دكتور نعيم عندما قُتل " يوسف الجرايحي".

تطلع السيد نحو العمدة فوجده لا يتابع الحديث فوقف قائلا قبل ان ينصرف :

– حسنا سنعطية فرصة أخرى .

سهى بدهشة :

– ماذا تعني " بسنعطيه " ؟! ... أيوجد غيرك يؤيدك الرأي ؟!

– نعم ... رجال القرية كلهم يؤيدونني .

انصرف الرجل فتطلعت سهى لأبيها ثم قالت بدهشة :

– أرأيت يا أبي .. أرأيت مدى الوقاحة من رجال القرية .. ومدى كراهيتهم لدكتور نعيم

****

إنها النصف ساعة التي تسبق الغروب حيث اختفت الظلال مع ضعف ضوء الشمس ... وقد خرج دكتور " نعيم " قاصداً بيت العمدة .. كان الجميع يتطلعون إليه بدهشة فخروجه شئ غير

معتاد – وبحرص فالشكوك تحيطه – كان الكل يتجنبه ، يبغضه ، يشعر بالقلق منه ...وفي بيت العمدة حيث دار هذا الحوار.

العمدة :

– لا يا دكتور نعيم .. لا يا ولدى لا أستطيع أن أفعل ذلك .

نعيم :

– لما ؟!

– أنسيت إنني فقدت ابنى الوحيد منذ عدة أيام ... كيف أوافق علي زواجك من ابنتي في التو؟!

– وما شأن الوفاة بالزواج ؟!

– إنها طبيعة القرية يجب أن تؤجل الزيجات والأفراح إذا ما حل مكروه .

– إنه أمر عجيب ... ما شأن هذا بذاك .

العمدة بحكمة :

– يا ولدي إن لم توقر الحزن فإنك لا تستحق الفرح .

وهنا جاءت سهى من غرفتها بعد ما وصلها خبر وصول دكتور نعيم مرتدية ملابس الحداد .

سهى بهدوء :

– مرحبا يا دكتور نعيم .

ببرود :

– أهلاً سهى .

صمت الجميع فترة في إنتظار أن يبدأ الآخر . وطال الصمت الي أن قطعه نعيم قائلاً :

– إن العمدة يرفض زواجنا يا سهى .

العمدة :

– لم أرفضه علي الإطلاق .. ولكنني ارفضه في هذه الآونة .

نعيم :

– ما رأيك يا سهى ؟

– إن أبي مُحق يا دكتور نعيم فلم يمر علي وفاة أخي سوى ثلاثة أسابيع فقط .

إندهش نعيم وقال :

– ولكننا يجب أن نتزوج الآن وفي أسرع وقت .

العمدة :

– لا أستطيع .

نعيم :

– فلتحاول .. أرجوك حاول .

سهى :

– ولمّ العجلة ؟

نعيم :

– لأنني أشعر بالغربة في قريتكم هذه فالجميع هنا يتطلعون اليّ بطريقة مستفزة .. إنني أريد أن أكون أحدهم أعيش معهم استشعر الخطر مثلهم .

سهى :

– ولكن .

نعيم :

– ولكن ماذا ؟! إننا إن لم نتزوج في أسرع وقت فلسوف أضطر آسفاً لترك القرية إنني لا استطيع العيش في .....

ثم قطع حديثه وأخرج زفيراً قوياً وتطلع لأسفل قائلاً بهدوء :

– أرجوكم ساعدوني.

العمدة :

– إننا نتمنى مساعدتك يا بني .. ولكن ساعدنا أنت أيضاً .

نعيم :

– أخبرني ماذا أفعل ؟

سهى :

– فلتنتظر قليلاً حتى يتبخر حزننا :

العمدة :

– علي الأقل انتظر حتى يمر أربعون يوماً .

نعيم :

– كما تريد يا أبي .

العمدة وقد ألمته كلمته " أبي " فأوشكت دمعة أن تفر :

– حسناً الخميس الأول بعد " الأربعين " سيكون يوم زواجكما .

لم تبد أية تغييرات علي وجه سهى كذلك نعيم ... بينما وقف العمدة وتحدث بصوت مرتفع :

– يا " فتحية " أوقدى لمبة الجاز فقد دخل الليل .

وهنا هبّ نعيم من مقعدة قائلاً :

– حسنا سأنصرف الآن فلديّ بعض الأعمال بالوحدة .

العمدة :

– انتظر حتى تتناول معنا طعام العشاء .

نعم بقلق :

– لا .. لا .. شكراً لا أستطيع .

****

وبعد صلاة العشاء مباشرة وفي مسجد القرية إجتمع الرجال وكان لابد من وضع نهاية للشيطان المرتدي ملابس بيضاء .

كان " السيد أبو خليل " يتزعم جمع الرجال الذين أبدوا استيائهم من الدور السلبي للعمدة فأحدهم يقول :

– إن العمدة متمسك بهذا النسب ولو علي حساب القرية .

وأخر يزيد :

– إنه سعيد جداً بمن سيصبح زوج ابنته .

وثالث يؤيد في عطف :

– فلنعذر الرجل ففقدان ابنه الوحيد قد جعله مشتت العقل .

السيد أبو خليل :

– إننا الآن ومع احترامي الشديد للعمدة يجب أن نُصّرف أمورنا بإرادتنا .. فيجب أن نضع حداً لنعيم .

الشيخ محمد :

– وماذا سنفعل ؟

أحد الرجال :

– نقتله .

الشيخ محمد :

– لا .. حتى لا نتحمل وزره . فعلى الرغم من إجماعنا علي أنه الفاعل إلا أن تنفيذ العقوبة ليس من سلطة أحداً غير ولي الأمر.

السيد :

– إذاً فلنمهله ثلاثة أيام بعدهم لا نريد أن نراه في القرية وإلا سنفتك به .

****

خرج الرجال من المسجد إلي ديارهم في سرعة شديدة فالعسكر مازالوا يجوبون القرية وكان السيد أبو خليل قد ودع الشيخ محمد منذ قليل بعدما سار معه لعدة خطوات ثم اتجه عائداً لداره في حزم فهذا الرجل قد حمل علي عاتقه حماية القرية والتصدى لنعيم حتى أخر نبضة في قلبه .. وعن بُعد كان حماس وتحدى شديدين يتصارعان بداخل سيد وهو يسير عائدا لداره فى حزم ولو رأى نعيم أمامه الآن فلسوف ينتزع قلبه هو .

– سيد .

وفجأة تسمر السيد مكانه وإلتفت خلفه ليرى كنه صاحب الصوت الذي ناداه إنها سهى.

سهى :

– ما الذي فعلته يا سيد ؟

السيد :

– فعلت ماذا ؟!

كانت سهى تقف علي بعد مترات مرتدية ملابسهى السوداء ووجهها يبدو في الظلام أنه يحمل تعبيرات الغضب الشديد من سيد .. وضح ذلك عندما قالت :

– أتريد أن تُحدث فتنة في القرية يا سيد ؟

اقترب سيد قائلاً :

– أنا لم أفعل سوى واجبي .

سهى :

– أية واجب أيها الحقير.

كانت دهشة سيد أشد من غضبه فسهى لم تسبه مطلقاً ولم تسلك الإساءة طريقاً الي لسانها من قبل وعلي الرغم من ذلك تلاشى إساءتها قائلاً في شجاعة :

– واجب التصدي للسفاح الذي خدعكم ببريق عينيه .

سهى بحدة :

– إخرس .

اقترب سيد أكثر وقال :

– لن أخرس .. ومن الآن فصاعداً سيخرس من لا يهتم بشئون القرية سيخرس من لا يهتم سوى بالشئون العاطفية .

وهنا رفعت سهى يدها اليسرى وهوت بها علي وجه سيد ولكن الأخير أمسك بيدها قبل أن تصله الصفعة فما كان منها إلا أن مدت يمناها لتخترق صدره وتنتزع قلبه نزعاً .

****

وفي صباح اليوم التالي كان رجال القرية يحاصرون الوحدة الصحية في مشهد ثوري أشبه بانقلاب علي طاغية القرية كان بعضهم يحملون جثة " السيد أبو خليل " والبعض يحملون العصي في حين إرتفعت بعض صراخات النساء اللائي جئن مؤيدات لتلك الثورة الشعبية ... وبداخل الوحدة جلس نعيم ببرود شديد جدا في حجرته يدون شئ ما في هدوء متلاشياً تماماً ما يحدث بالخارج بالرغم من سماعة لأصوات الرجال الآمرة أياه بالخروج في حين أوشك قلب دهشان أن يتوقف خشية من الرجال علي سيده ... إن قلب دهشان الطيب لا يتحمل أن يرى

مكروهاً يصيب دكتور نعيم فهو وإن كان حاد الطباع بارد الملامح إلا أنه لا يمكن أن يقوم بتلك الجرائم الوحشية لذا فقد وقف دهشان أمام باب الوحدة الصحية قائلاً بأعلي صوته بعدما أوصد الباب خلفه بإحكام شديد :

– يا رجال القرية ماذا دهاكم هل جننتم جميعاً ؟

هاجت الرجال وارتفعت صيحاتهم في حين جاء صوت أحدهم يقول :

– لا شأن لك بهذا الأمر يا دهشان .

دهشان :

– ألستُ أحدكم ؟!!

صوت من الخلف :

– لا .. إنك أصبحت مثله .

دهشان :

– كفاكم تهور أيها الرجال إن الشخص الذي يجلس بالداخل ما هو إلا رجل ترك أهله وتغرب في بلدكم ليحافظ عليكم فلا تردوا جميله بالنكران .

صرخ رجل يقف في المقدمة قائلاً :

– لا تنخدع يا دهشان كغيرك .

دهشان :

– إنني لست مخدوع .. فلتصدقوني إنني لو كنت رأيت ما يدعو للشك فيه لما بقيت في الوحدة لحظة واحدة بل لكنت سارعت بالوقوف الي جواركم ولكنني...

وهنا علت أصوات الرجال :

– دعه يخرج .. دعه يخرج لنا .

دهشان بحدة :

– وماذا ستفعلون إذا خرج لكم ؟ هل ستقتلونه أم ستطردونه من قريتكم ؟ ومن سيُعالجكُم إذا ما حل وباء علي القرية .....

تعالت أصوات الرجال بحيث غشت صوت دهشان والأخير يدافع جاهداً ولكن كلماته ذابت وسط صراخات الإستنكار .

أخذ الرجال في الإقتراب ودهشان بمفرده يحاول أن يصدهم ولكن ... إقترب الرجال وتلاحم بعضهم وراحوا يتراجعون للخلف ثم يندفعون بشدة نحو الباب في محاولة لفتحه في حين إنطلق دهشان نحو مكان آخر .

****

كانت العصى ترتفع بعصبية ليس أكثر منها سوى ثورة الرجال ..... كان هناك بعضاً من رجال القرية لم يعني لهم الأمر شيئا لذا فقد جاءوا فقط للمشاهدة ... وبعضاً من النساء لن يؤثر بقاء دكتور نعيم من عدمه معهن فشئون البيت أفضل لذا فقد لزمن ديارهن .

وفي برود شديد يجلس بالداخل بينه وبين الموت اللحظات التي تفصل بين الرجال وفتح الباب الصلد الذي أوشك علي الاستسلام ولكن وبصوت مرتفع جداً :

– توقفوا ... توقفوا أيها الأغبياء .

إلتفت الرجال نحو العمدة الذي كان يسرع نحوهم وإلي جواره سهى ودهشان وثلاثة من الخفر يسبقهم الصاغ " علي الخولي " ومعه قوته المحدودة .

العمدة بحدة :

– توقفوا أيها الجهلة .

ساد المكان فجأة صمت شديد لم يقطعه سوى استطراد العمدة :

– منذ متي وقد أصبحتم القضاة والعسكر .. منذ متي أصبحتم الحاكم والمنفذ . لقد اجتمعتم وحكمتم علي الطبيب ثم جئتم لتنفذوا الحكم دون الإستماع لدفاعه ودون الأخذ برأى رجال الشرطة .

أحد الرجال :

– لقد قالت الشرطة أن الفاعل هو أبو الأخبار .

العمدة :

– اذاً فرأي الشرطة صحيح .

الرجل :

– ونحن لا نصدق ذلك .... أبو الأخبار الذي عاش معنا وأكل من طعامنا ونشأ بين ذوينا.....

العمدة مقاطعاً :

– اتضح أنه قاتل سفاح .

الشيخ محمد بهدوء :

– هكذا فجأة ... أمسي أبو الأخبار طيباً ثم أصبح سفاحاً .

العمدة :

– بين عشية وضحاها يفعل الله ما يريد .. أليس هذا ما كنت تقوله لنا . يا شيخ محمد

– نعم ولكن ما أدرانا أن أبو الأخبار هارب كما قالت الشرطة .. ما أدرانا أنه لم يُقتل.

العمدة بحدة :

– إذاً فلتنتظروا أيها الرجال وإما أن تجدوا أبو الأخبار أو تجدوا جثته والآن عودوا لدياركم.

وبحدة أشار الصاغ " علي الخولي " لرجاله قائلاً :

– فالتنهوا هذا التجمهر.

اندفع حراس الشرطة بين جموع الرجال وراحوا يدفعونهم للخلف وهم يأخذون العصي من أيديهم بينما اقترب العمدة من الشيخ محمد وقال وهو ينظر لجثة السيد المحمولة علي الأعناق :

– إكرام الميت دفنه وليس العبث به يا شيخ محمد ... ارحموا هذا الرجل .

الشيخ محمد بهدوء :

– فليرحمنا الله جميعاً .

****

وبمهارة فائقة راح الجراحون يزرعون القلوب بعناية ودقة وبعد فترة بدأت الدراسات ورُصدت الإحصائيات .. إن النتائج ناجحة .. ناجحة جداً لقد تغيرت بالفعل طباع الكلاب .. شئ ما حدث بداخلهم .. بدأ الحب يغمرهم . بدأوا لا يشعرون بتلك المشاعر الكريهة السابقة .. اتصلت بالقلب باقى الشرايين والأوردة فبدأ الدم يندفع من وإلي القلب ... بدأت القلوب تنبض .بدأت الكلاب تشعر بالحب .

أصبح الكلاب يحملون قلوباً .. قلوب سعدية وإبراهيم ورشاد وعوض ومحمد المصري وغيرهم ..... وكلافين يقوم بمهمته علي أكمل وجه.

****

انصرف الرجال وفتح دهشان باب الوحدة الصحية فدخل العمدة تتبعه سهي في لهفة والصاغ "علي الخولي ".

العمدة للدكتور نعيم بخزي :

– لا أعرف كيف أعبر لك عن أسفي .. ولكنك يجب أن تعرف أن من كانوا بالخارج ليسوا إلا مجموعة من القرويين السُذج ظنوا أن لك يداً بما حدث في القرية.

لم يرد نعيم بل لم يلتفت إلي العمدة الذي استطرد في هدوء :

– يا نعيم ياولدي كان يجب أن تعرف أن أي إنسان في مثل وظيفتك مُعرض لمخاطر وصعاب خاصة إذا ما كان عمله في قرية بسيطة كقريتنا ، المتعلمون بها كأمطار الصيف نادرون جداً بل يكادوا ينعدمون .

وبهدوء سحب الصاغ على الخولى ورقة كانتبيد نعيم قائلاً في هدوء بعدما اطلع علي ما بها:

– إستقالة .. لما ؟!

خطفت سهي الإستقالة من يد الضابط قبل أن تقول :

– أي هراء هذا يا نعيم ؟

رفع نعيم عينيه لعيني سهى التي اسقطتهما خجلا قائلة:

– عفوا يا دكتور نعيم .. ولكنني أشعر أن بإستقالتك شئ من الإندفاع .

نعيم :

– وهل سأنتظر حتى يفتك بي الأهالي .

العمدة :

– لن يستطيعوا أن يمسوا طرف ثوبك .

نعيم ببرود شديد :

– بل يستطيعون وكانوا سيفعلونها لولا صلابة الباب .

العمدة :

– أقسم لك أن .....

نعيم مقاطعاً :

– لا تقسم بما ليس لك يد عليه .

سهي :

– ماذا تقصد يا نعيم .. إن الرأي والسيطرة كلها في القرية لأبي ولا يستطيع أي مخلوق بداخل القرية أن يفعل شيئاً يأباه أبي .

العمدة :

– هذا صحيح .

نظر نعيم للعمدة وقال :

– اذاً اخبرني ماذا ستفعل إذا ما وجدت جثتي ملقاة وسط الزراعات منزوعة القلب .

رفع العمدة عصاه قائلاً :

– سوف أ .... هه ...أ .... ماذا ؟!

توقفت الكلمات في حلق العمدة في حين قال نعيم ببرود:

– ماذا ستفعل؟

قال الصاغ علي الخولي :

– لن يجرؤ أحد علي فعل ذلك مادمت أنا موجود بالقرية .

ثم أضاف الصاغ بهدوء :

– ثم من هذا الذي يستطيع أن يؤذي زوج إبنة العمدة؟

نعيم :

– لم أصبح بعد زوج إبنته .

العمدة :

– أيام قلائل وسنعقد القران .

نعيم :

– وهل تضمن ألا يصيبني مكروهاً في تلك الأيام القلائل .

سكت العمدة فأستطرد نعيم :

– بالطبع لا تضمن ذلك .. إذاً فعجل بزواجنا وليصبح غداً .

العمدة :

– لا أستطيع ... لا أستطيع قبل مرور الأربع .....

قاطعة نعيم بحدة :

إنك إن لم توافق الأن قد تنتظر أربعيناً آخر أو قد تنتظر نعيماً آخر.

****

في هدوء تام تم عقد قران دكتور " نعيم " طبيب الوحدة الصحية " وسهي " إبنة عمدة القرية . خلا بيت العمدة إلا من أصحاب الشأن .. وقبيل المغرب ذهب الزوجان لمنزلهما والذي أعده العمدة لهما عن بعد من منزله حسب رغبة نعيم.

وبمنزلها جلست سهي في غرفتها الجديدة في حين ذهب نعيم نحو باب المنزل فور سماعه لصوت طرقات عالية على الباب .. من هذا الذي يطرق الباب الآن بهذه القوة .

فتح نعيم الباب وما أن فعل حتى علت الدهشة ملامحه الباردة وهو يقول بغرابة شديدة للواقف أمامه:

– كارتين !! ما الذي أتي بك إلي هنا ؟

كارتين :

– ماذا فعلت أيها الأحمق؟

نعيم ببرود :

– تزوجت .

– وهل أنت من هذا الجنس حتى تتزوج منه .. حذار أن يكون هذا الشكل البشري قد أعجبك فقررت التمسك به.

– لا .. ولكننى فعلت هذا مضطراً.

كارتين بحدة رفعت من صوته:

– وما الذي اضطرك لـ....

قطع كارتين جملته الحادة وهو يسمع صوت سهي من الداخل تقول :

– من معك بالخارج يا نعيم ؟

نظر نعيم الي كارتين بغضب وقال لسهي:

– إنه صديقى .

سهي:

– من ؟!

نعيم محاولاً تدارك الموقف :

– إنه صديقي جاء من القاهرة لتهنئتي علي زواجي.

شعرت سهي بالدهشة وعلي الرغم من ذلك جاء صوتها قائلاً :

– اذاً فليتفضل بالداخل.

دخل كارتين إلي ساحة المنزل الفسيحة بينما توارت سهي في غرفتها وقد تسرب القلق إلي قلبها فظل يخفق بشدة وهي تقول محدثة نفسها:

– إن قلبي لا يخدعني أبداً ... إنني أشعر بوجود خطر شديد ... هذا الخطر قريب ... قريب جداً . ولكن ماهو ؟ ... وأين هو ؟ ... لا أدري ... كيف علم صديقه هذا بزواجنا المفاجئ . ومتى جاء الى هنا وكيف ؟!! .... إنني أشعر بالخوف.

جلس كارتين علي مقعد مجاور لمنضدة كبيرة وقال في برود:

– ما الذي اضطرك للزواج؟

– لقد شكّ أهل تلك القرية في طباعي وتصدوا لي وما كنت أستطيع أن أصدهم إلا بزواجي من إبنة العمدة.

كارتين :

– نعرف ان الخطر يحيطك .. ولكننا نرفض زواجك .

نعيم :

– لماذا ؟

– حتي لا نترك لنا بقايا في هذا الكوكب الحقير .

نعيم :

– حسناً . ولكنكم تباطئتم فى انقاذى . وانا اخبرتكم إذا شعرتم بخطورة عليّ فأرجوا أن تسارعوا بإنقاذي.

كارتين ببرود:

– حسنا سنحاول .

تطلع نعيم لكارتين بحدة وقال بصوت مرتفع :

– ماذا تعني بسنحاول؟!

– أعني أننا سنحاول ؟

إحتدت المناقشة ووصلت لأسماع سهي وهما يواصلان :

– لقد أوشك الأهالي أن يفتكوا بي ولولا مجئ العمدة لكنت .....

– قلت سنحاول أن ننقذك .... فلِمَ الحديث كثيرا يا " كلافين " هل تطبعت بطباع الأرضيين سكان هذا الكوكب.

جحظت عين سهي عقب سماعها لهذه العبارة الأخيرة وقفز قلبها لحلقها ولكنها تنبهت لحديثهما مرة أخرى ونعيم يقول:

– أخفض صوتك أيها الكلب حتى لا تسمعه الأرضية التي بالداخل .

كارتين :

– سأنصرف الأن ولكنني أحمل إليك رسالة من كرابين تقول " إقتل الأرضية التي تزوجتها والمزيد من القلوب إن النتائج رائعة جداً ".

ابتسم نعيم وقال :

– حقاً .

– نعم .... لقد قام الأطباء في كوكبنا بزراعة القلوب في بعض الكلاب وظهرت النتائج إيجابية.

– أتعني أننا سوف نعرف ذلك الحب.

– نعم ... بمزيد من القلوب سوف نعرفه .

كانت سهي قد غاصت في بركة من الخوف عندما إنصرف كارتين .. هنا فقط أيقنت أن أهالي القرية كانوا علي صواب عندما شكّوا في نعيم .. والآن هي تجزم بأنه شئ غريب عن عالمها .

وعبر النافذة الصغيرة بحجرتها تطلعت سهي لترى كارتين وهو يسير عي أثنتين ثم فجأة إنحنى ظهره بشدة للأمام والتصق كفيه بالأرض فصار كلباً يمشي عي أربع !!!!

شهقت سهي بشدة وهي ترى ضيف نعيم قد تحول لكلب أسود بشع الشكل .. عرفت سهى أنها تزوجت من كائن غريب .. كائن ليس من نوعها ليس من جنسهى ليس من كوكبها .. كائن من مكان آخر غير الأرض .. كائن تارة إنسان وتارة حيوان.

وبيدين ترتجفان وجسد ينتفض رعباً أشعلت سهي لمبة الجاز محاولة بأقصي ما لديها من قوة أن تتحكم في هدوء أعصابها ونجحت . بالرغم من سيل العرق الذي تساقط علي وجهها نجحت . بالرغم من قلبها الذي كانت تسمع دقاته .. نجحت . عندما إستجمعت كلماتها لتجيب علي نعيم الذي جاءها صوته من ساحة المنزل قائلاً:

– اطفئي لمبة الجاز يا سهي فكما تعلمين فإن الضوء أأ .....

قاطعته سهي قائلة عبر غرفتها:

– إن الخوف من الضوء سيظل يطاردك طالما لم تواجهه.

نعيم :

– ماذا تقصدين ؟

– أقصد أنك يجب أن ترى الضوء وتواجهه حتى تتخلص من عقدتك منه.

– لا ... لا أستطيع . هيا أطفئي تلك اللعينة حتى أستطيع دخول حجرتنا .

سهي بتحدي :

– لن تدخلها حتى أعرف من أنت .

ببرود :

– أنا دكتور نعيم زوجك .

ضحكت سهي قائلة :

– إنتهي عصر الخداع ياكلافين .

صمت كلافين برهة ثم قال مصطنعاً للدهشة :

– كلافين !!

– نعم كلافين .. هل ستنكر إسمك ؟!

كانت هذه المناقشة الغريبة تدور عبر الحجرة والساحة والصوت يغدو ويروح.....

سهي :

من أنت ؟

بهدوء قال :

– أنا دكتور كلافين أحد سكان كوكب الكلب الأصغر .

سهي بدهشة:

– كوكب الكلب الأصغر !!

– إنه كوكب يقع في النصف السماوي الجنوبي كان عامراً بالسكان .. بالحضارة .. بالرقي . لكن البغضاء حولته لبقايا كوكب ... ولكننا أقسمنا لكرابين أن نحافظ علي كوكبنا.

–.....

– وكرابين هذا أو كما نسمية " عدو البغضاء " هو أول من نادي بالحب.

سهي :

– لا أفهم شيئاً .... من انت ؟!

****

في هذه الأثناء وصلت إشارة للصاغ علي الخولي من حكمدارية الغربية تفيد بأنه قد تم العثور مؤخرا عي جثة في الزراعات وبعد عدة تحريات إتضح أنها لطبيب يدعي كمال عز الدين محمود وبالاستفسار عنه من الجهات المختصة علمنا أنه كان مكلف بالاشراف على الوحدة الصحية لقرية الدمشطة وإن احدا لم يسمع عن الطبيب الذي يدعي " نعيم شوكت عثمان " فمن

المؤكد أنه مزيف .. أربط بين حوادث قتل في قرية هادئة بدأت مع وصول طبيب مزيف تعرف من القاتل؟! .. ثم انتهت الإشارة بأمر القبض عي ذلك الطبيب وفي أسرع وقت .

****

كلافين :

– بإختصار نحن مخلوقات تشبه إلي حد كبير من الناحية الفسيولوجية تلك الكلاب المتخلفة التي تعيش عي كوكبكم إلا أننا مخلوقات بلا قلوب ... لم تخلق لنا قلوباً لذلك فنحن لا نعرف الحب لا نعرف المودة لا نعرف العطف لا نعرف سوى الكراهية والبغضاء .

سهي :

– وما الذي أتي بكم إلي الأرض؟

– القلوب .... نحن نريد قلوباً .... لقد جعلوني علماء كوكبي أحمل خاصية تغيير ملامح الوجه والجسد حتى أتمكن من ذلك .

إتضحت الصورة بشكل كبير لسهي التي سرت بجسدها رعشة خفيفة قاومتها لأنها تعرف أنها في أمان وأن ذلك المخلوق سيخشي مواجهتها.

– إذاً فقلب رشاد أنت إنتزعته.

ببرود :

– نعم .. كما انتزعت قلوب سعدية ومحمد المصري وعوض وابراهيم.

سهي بانفعال :

– أنت حيوان

– نعم فأنا كلب.

– وحيوان بلا قلب

ببرود أشد:

– هذا صحيح .. ولكن الأطباء سوف يزرعون لي قلباً عندما أعود لكوكبي العزيز .

سهي بحدة :

– ومن الذي سيدعك تعود لكوكبك اللعين؟

وهنا انفعل نعيم قائلاً بحدة:

– لا تسبي كوكبي أيتها الأرضية الحقيرة.

سهي بإستهزاء :

– أتعتز بإنتمائك لكوكب الكلاب .

– نعم . كما لا تخجلين أنت من إنتماءك لكوكب سكانه يدمرونه .

– وهل تظنون أيها الأغبياء أن للقلوب صلة بالحب .. إن القلوب ما هي إلا أعضاء تقوم بـ.....

– بل لها صلة بالحب هذا ما أكده علماؤنا . ولا تنسي أننا أكثر علما وتطوراً منكم.

– حسناً ولكن هذه القلوب ستحول حياتكم لجحيم عندما تشعرون بالحب وتخبركم قلوبكم أنكم قتلتم أشخاص أبرياء.

– لا .. لن نشعر بالندم لأننا ندرى جيداً أنكم لا ستتحقون هذه القلوب.

بإستهزاء :

– وأنتم الذين تستحقونها .. أليس كذلك؟

– من حقنا أن نُجرب .

– أيها الكلاب ... لن تدمروننا لن تنفوا حياتنا أبداً .

ببرود :

– لن ندمرها بالطبع لأننا سنأخذ ما يكفينا من القلوب ثم نترككم أيها الأرضيون تواصلون قتل أنفسكم .

– إخرس أيها الحيوان .

تلاشي نعيم العبارة الأخيرة قائلاً :

– أتظني أنني لو لم أقتل سعدية هل كان رشاد سيتركها... أو لو لم أقتل إبراهيم هل كان سينجو من حسين .. أم أن محمد المصري كان سيترك قاتل أخته .

أمسكت سهي بلمبة الجاز ورفعتها بيدها قائلة في صوت أشبه للبكاء:

– هل انتهيت أيها المعتوه.

ببرود :

– نعم ... انتهيت والأن إسمحي لي بقلبك أيتها الكائنة .

انتفضت سهي وقالت وهي تضغط علي لمبة الجاز :

– تفضل ... تفضل لتلقي حتفك .

لم يتحرك نعيم من موضعه فقد ظل واقفاً في برود وكأن لم ولن يحدث شيئاً في حين أضافت سهي:

– تفضل ... تفضل أيها المخلوق الضعيف.

ثم تطلعت للمبة الجاز وقالت :

– هيا إقترب أم أنك تخشي ضوء " لمبة جاز " صغيرة.

لم ينطق نعيم فاستطردت سهي قائلة :

– أرأيت .... أرأيت أنني أستطيع أن أقتلك بهذا الضوء الذي كنت تخشي دائماً أن يقتلك فتحاول إجتنابه بحجج واهية .... هيا اقترب لترى نهايتك البسيطة . هيا لترى الضوء القاتل.

ثم اتبعت سهي عبارتها بضحكة ساخرة طويلة قطعتها فجأة عندما وجدت " كلافين " يظهر أمامها ويخترق باب الحجرة ويتطلع إليها في برود وإلي ذلك الشئ المضئ ... شهقت سهي وتطلعت في ذهول وشك إلي المصباح ثم ضغطت عليه بشدة وهي توجهه للأمام لتسلط الضوء علي وجه " كلافين " الذي يأبي البرود أن يترك وجهه .....

إنتظرت سهي اللحظات التي سترى ذلك المخلوق وهو يصارع الموت أو يتحول جسمه لرماد أو تشتعل النيران بجسده أو يتحول جسده لجزيئات تسبح في الفضاء ولكن أياً من ذلك لم يحدث .....

خفق قلب سهي بشدة وانتفض جسدها رعباً لذا وبطريقة لا شعورية قذفت " لمبة الجاز " في إتجاه " كلافين " ثم اندفعت راكضة للخلف ملقية بجسدها عبر النافذة ..

سقطت سهي أرضاً خارج المنزل وبدون وعي هبت واقفة ثم انطلقت تعدوا بسرعة وإلي وراءها كان كلافين يسير متتبعاً إياها.

كانت قد ركضت قليلاً عندما تطلعت خلفها فوجدته يسير خلفها بخطواته الحادة الثابتة المسرعة .... مما استدعي سرعتها أن تزيد عن طاقتها حتى أنها كانت تتعثر فتقع أرضاً ثم تزحف عدة خطوات ثم تنتصب واقفة .... ضغط بدني ونفسي وعصبي شديد تعرضت له سهي زاد علي ذلك خلو الطريق المظلم فكاد أن يغشي عيها لولا أن رأت الصاغ علي الخوليمقبلاً عليها بزيه الرسمي المعتاد وعصاه الصغيرة المميزة فتحاملت حتى اقتربت منه وألقت بنفسها أسفل قدمية وهي تشير للخلف بذعر شديد قائلة:

– نعيم .... القاتل .... أنه هو ..... نعيم.

وظلت تبكي شبه منهارة أسفل قدمي الصاغ علي الخولي الذي انتصب أمامها دون أن يبدى أي رد فعل ورويدا رويدا بدأت سهي ترفع رأسها لأعلي نحو وجهه فإذا بملامح وجهه تتغير وتتبدل وتأخذ طابع الحدة وهو يقول لسهي :

– لقد عرفنا ذلك في التو فلقد وصلتنا إشارة من الحكمدارية تفيد ذلك .

إلتفت الصاغ علي الخولي لرجاله الذين كانوا يتبعونه وأشار لأحدهم قائلاً:

– فلتصطحب "سهي" هانم حتى دار العمدة ثم تعود إلينا مسرعاً قبل أن نصل لبيت الطبيب السفاح .. فنحن نحتاج لكل رجل فى .....

وهنا لمح الضابط الخفير " علي " وهو يقترب فقال منادياً اياه :

– غفير "علي " ..... غفير "علي ".

اقترب الخفير " علي " بهدوء ووقف أمام الضابط انتباه وخلف ظهره بندقيته العتيقة.

قال الصاغ :

– فلتصطحب " سهي " هانم حتى دار العمدة .

الخفير " علي " :

– حاضر يا حضرة البيه .

– ولتخبر العمدة أننا تأكدنا أن الطبيب " نعيم " هو القاتل .

وهنا قاومت سهي انهيارها وقالت في هدوء:

– إنه ليس طبيبا ... ولا اسمه نعيم .

الصاغ " علي " :

– أهو إنسان مزيف .

– بل هو ليس إنساناً علي الإطلاق .

رفع الصاغ " علي " حاجبيه في دهشة بينما ارتسمت علامات الذهول علي وجه رجال حراسته في حين تدلي الفك السفلي للخفير " علي " وسهي تسرد ما رأته وسمعته بالتفصيل .....

****

انكشف سر القلوب .... انكشف سر الكلاب .... والآن بدأ كل شئ يختلف ..... بدأت الحقائق تضح.

****

١٠– الليلة الأخيرة :

انتهت " سهي " من سرد ما رأته فوقفت صامته أمام الصاغ " علي " الذي إلتزم هو أيضا الصمت الطويل ..... طال صمته كثيرا قبل أن تقول سهي :

– هذا كل ما حدث ... وكل ما رويته رأيته بعيني وأنا بكامل قواي العقلية ولا أهذي.

انتفض الصاغ " علي " وقال بهدوء شبه محدثاً نفسه :

– غريب حقاً ما ذكرتيه ... نعيم أسمه كلافين !! الكلب الأصغر ... ولكن ....

سهي مقاطعة :

– ولكن المهم أن تقتنصوه الآن قبل فوات الأوان .

إنطلق الصاغ " علي الخولي " ومعه قوته المحدودة نحو " كلافين " بينما سارت سهي بصحبة الخفير " علي " عائدة لبيت أبيها حيث الأمان كانت " سهي " تشق الظلمات في رعب مكبوت وهي تسير في سرعة شديدة وإلي جوارها الخفير " علي " يسير بخطواته المميزة على مشط القدم التي يبدو بها وكأنه إحدى العرائس المتحركة .

تردد الخفير " علي " كثيرا قبل أن ينطق بسؤاله :

– أحقا ما ذكرتيه يا سهي هانم عن الدكتور نعيم .

سهي دون أن تلتفت إليه:

– نعم حقا ... إنه ليس بشرياً.

علي بهدوء :

– ولكن شكله يقول أنه إنسان .

– إنه يغير ملامحه وهيئته كما يشاء .

– وكيف يفعل ذلك ؟!!

– الله أعلم ... فهو من كوكب أخر .

علي بغباء :

– وهل يبعد هذا الكوكب كثيرا عن قريتنا .

تلاشت سهي عبارة " علي " الأخيرة فسكت وقد شعر بأنه تغابي كعادته ثم سارا الإثناء سوياً مسافة كبيرة قبل أن تقول سهي :

– لماذاتوقفت عن الحديث فأنا أخاف هذا الصمت القاتل .

علي ببرود:

– حسناً فلتتحدثي أنت .

تطلعت سهي للمرة الأولي الي وجه " علي " وقالت بدهشة :

– ماذا أصاب صوتك يا " علي "؟

– لا شئ.

ثم إستمرا في السير وإن كانت سهي ترمي بطرف عينيها من الحين للآخر نحو الأخير وما أن تتقابل الحدقتان حتى تخفض سهي عينيها ثم تتطلع للأمام.

****

الصاغ علي الخولي :

– ابحثوا جيداً .

أحد الحرس :

– إن الدار خاوية تماماً ... لابد أنه قد فر .

أمسك الصاغ بعصاه وقال في قلق شديد:

– فر !! يا للكارثة ... أين ذهب اذاً.

تطلع رجاله بعضهم إلي بعض دون أن ينطق أيا منهم وساد صمت قليل قبل أن يصرخ قائدهم قائلاً:

– فالتصغوا اليّ جيداً أيها الرجال من الآن سوف تبدأ لنا مهمة غاية في الصعوبة فسوف نواجه سفاحاً يتلون بألف وجه ....

****

سهي بخوف شديد :

– إنني خائفة أشعر أننا كلما اقتربنا من الدار تبتعد هي عنا.

الخفير " علي " :

– لا تخافي فالدار ساكنة لا تتحرك .

– هل تعتقد أن الشرطة يمكنها القبض علي نعيم؟

"علي" بصوت حاد :

– بالطبع لا.

انتفضت سهي من العبارة الأخيرة وقالت :

لما ؟

– لأنه كالزئبق !!

سهي :

– حقاً إنه كذلك ولكن .....

علي :

– ولكن ماذا .

– ولكن الشرطة لها أساليبها في البحث وكشف الأسرار والوصول الى .....

علي مقاطعاً:

– كل هذا غير مُجدي مع " كلافين " .

- بالعكسفظلهيعتبرنقطةضعفواضحة.....

ثم بترت سهي عبارتها فجأة وانتبهت لشئ وقالت وهي تتطلع " لعلي " في رعب :

– كلافين !! كيف نطقت الاسم بهذه السهولة؟

علي ضاحكاً:

– إنه إسم سهل جداً وقد راق لي كثيراً . عندما ذكرتيه امام الصاغ .

سهي :

– حسناً فلنغير حديثنا ... كيف حال ابنك محمود ؟!

علي :

– بخير ... لقد تماثل للشفاء .

سهي :

– هل كان مريضاً ؟

– نعم .

– انني أسأل عنه لأعرف متى سيتم زفافه.

ثم بنبرة بسيطة أضاف وهو يسير متطلعاً للأمام :

– ها نحن قد اقتربنا من المنزل . فقلبي يوشك أن يتوقف رعباً

سهي بهدوء وهي تتطلع للمنزل :

– حسناً فسوف أخبر أبي بما حدث حتى يُحذر باقي الخفر ليأخذوا احتياطاتهم .

في هذه اللحظة سمعت " سهي " صوت ضحكة مجلجلة مرعبة تصدر من جوارها .... وبهدوء مالت جانباً لتستنجد بالخفير " علي " ولكنه لم يكن هو فالخفير " علي " في سبات عميق ، أما من كان يحرسهى فقد كان هو ..... دكتور " نعيم "

شهقت " سهي " رعباً وهي تتطلع عن قرب إلي وجه " كلافين " .

****

الصاغ " علي " بصوت حاد لرجاله :

– ابدأوا الآن .... كل بيت كل رجل كل إمرأة كل طفل .. الجميع يجب أن يعرف حقيقة نعيم حتى تتكاتف القرية كلها لمواجهة هذا السفاح وحتى يأخذ الجميع احتياطاته فلا يقع ضحايا جدد ... وعليكم أن تذكروهم بنقطة ضعفه بظله ... هيا انطلقوا.

****

اندفعت سهي مسرعة للأمام وفي ثوان معدودات كانت تطرق باب الدار بعنف شديد وعلي مسافة ليست ببعيدة كان نعيم يقترب منها بخطواته السريعة الحادة المرعبة راسماً علي وجهه ابتسامة حادة مرعبة ..... شعرت سهي أنها طرقت الباب كثيراً جداً وما من مجيب وهذا الشبح يقترب ... ازدادت طرقاتها وازداد قربه ....لذا قررت أن تعدوا بعيداً ... لا تعرف إلي أين ولكنها ظلت تعدو . وخلفها عن بعد كان يسير بخطواته المعهودة في ثبات شديد وهو يتطلع للأمام بحدة قائلا :

– تركتك لأقتلك عند بيت العمدة .... فلا تبتعدى كثيرا .

****

في هذه الأثناء كانت قوة الشرطة بالرغم من قلتها تقوم بعمل غاية في الصعوبة كانوا يطرقون كل باب في القرية ويوقظون أهله ويخبرونهم بالطاعون الذي يسير في قريتهم يجب ألا تغفل عين أحداً منكم فليجتمع كل أفراد الأسرة في غرفة واحدة حول لمبة الجازولا تفتحوا الباب لأى طارق تطلعوا جيداً للظلال من حولكم ... لا تخافوا حاولوا التماسك الليلة ... الليلة فقط ..... فهي الليلة الأخيرة .

ابتعدت سهي تماماً عن نعيم الذي يسير خلفها بخطواته المعهودة ... كانت سهي قد وصلت إلي الطاحونة المهجورة التي تقع في مكان متطرف بالقرية إنها تخشي تلك الطاحونة نهاراً فما بالها والليل يخيم المكان.....

اقتربت سهي من باب الطاحونة المتهشم وتطلعت الي الداخل ولكن قلب الطاحونة كان أسوداً اكثر من اللازم .. حقاً مرعبة تلك الطاحونة .. هل أغامر واحتمي بداخلها . تلك الطاحونة التي أخبرتني جدتي أنها في الماضي لم تكن تدور إلا بدماء رؤوس الأطفال الصغار .. وحذرتني من الإقتراب مجرد الإقتراب منها وحدي .. أسوأ الأشباح صغارها .. كم رأس صغيرة نُحرت هنا .....

كانت تلك الخواطر تدور في رأس سهي قبل أن تنتبه لصوت خطوات تأتيها من الخلف تطلعت فإذا به . ارتبكت سهي بشدة واتخذت خطوة يساراً ثم أخرى يميناً ... نعيم أم الطاحونة فلتكن الطاحونة . اندفعت سهي في ذلك الظلام الدامس لداخل الطاحونة وخلفها نعيم ببرود ... تعثرت في شئ فسقطت أرضا ولكنها نهضت مسرعة وواصلت محاولتها للإختباء في أي ركن في هذا المكان الذي بدت فيه كالكفيفة.. سارت في حذر ولكن رأسها أرتطمت بشئ صلب لا تدري ماهو .. تعلم جيداً إنها قد تراهنت مع نعيم علي هذا المكان ليخرج واحد فقط .. تحسست ذلك الشئ الصلب القائم أمامها لا بد أنه الجدار .. ألصقت ظهرها به وكتمت أنفاسها بشدة وهي تستمع لخطوات نعيم التي تحدث ضجيجاً شديداً في هذا الصمت.

أهو قريب أم أنه يقترب . لا تدري فالخطوات المزعجة تبدو كأنها تنبعث من كل مكان في الطاحونة .. ودقات قلبها القوية السريعة المتلاحقة تكاد تصم أذنيها ... أما نعيم فقد كان يقترب نحوها في ثبات وهدوء فأنفه تقوده لسهي بكل سهولة . لذا فعندما وصل إليها أحكم قبضته علي وجهها بشدة قبل أن يقول بصوت زاده صدى الصوت رعباً :

– والأن قلبك .

أخرجت سهي من فمها بعض التأوهات وهي تحاول دفع نعيم للخلف ولكنه كالجبل الصلد يضغط رأسها في الجدار بشدة وبين لحظة وأخرى سيكون قلبها بين يديه .. وفي محاولة أخيرة منها راحت تتحسس بيدها فيما حولها . أخيراً ارتطمت يدها بشئ معلق بالجدار إلي جوارها ملمس الشئ يقول أنه عصا خشبية غليظة . وفي حركة مباغتة جذبت سهي الشئ المعلق وهوت بيمناها علي رأس نعيم الذي علا صوته متألما وهو يرفع يده عن وجهها حاولت سهي أن تهوى مرة أخرى علي رأسه ولكنها لا تعرف ماذا حدث للعصاة لقد إلتصقت برأسه !! لذا فقد تركتها واندفعت نحو باب الطاحونة ولم تشعر بنفسها إلا وهي تهرول في نفس الطريق الذي أتت منه .... كانت تجرى بإتجاه بيت العمدة عندما رأت نعيم واقفاً أمامها علي جانب الطريق مبتسماً ابتسامة ساخرة .

لم يكن العجيب أنها رأته ولكن لأن رأسه كانت تطل منها " بلطة " قد ارتشق حدها برأس نعيم الذي كان يقف أمامها دون أن يحاول أن ينتزع ما في رأسه والدماء تسيل في إنسيابية علي وجهه ولأنها تعي جيداً أنها أسرع منه لذا فلم تتردد سهي في أن تواصل ركضها متجهة لبيت أبيها .. استدارت حوله في حذر متخذة شكل نصف دائرة مركزها نعيم وعندما تخطته أنطلقت مسرعة في الطريق المؤدي لبيت أبيها ... كانت تلهث بشدة ولكن الإصرار والعزيمة لديها أعلنا التحدي ... جسد واحد يجب أن يستقر به قلبها ... جسدها أو جسد أحد الكلاب ...

****

لا بد من قلب يخفق وآخر يخفت . في ماراثون البقاء تجري " ونعيم " يتبعها بهدوء عن بعد شديد فجأة سمعت سهي صوت ضحكات عن يمينها فنظرت لجانب الطريق فوجدت العمدة واقفا يتطلع إليها بعينيه الحادتين والضحكات الساخرة تكاد تهتز لها الأرض أسفل قدمية وقد ارتشقت في منتصف رأسه البلطة .... واصلت سهي العدو فالأمر لا يحتاج إلي ذكاء لمعرفة من هذا؟ ثم سمعت مرة أخرى صوت ضحكات مختلفة صادرة عن يسارها تطلعت فإذ به الشيخ " محمد " واقفاً يضحك بصورة ساخرة لم تتعودها منه وقد ارتشقت في منتصف رأسه البلطة لم تتوقف سهي ظلت تجري وتجري وهي تستمع للضحكات الساخرة التي تصدر من الحين للآخر من أشخاص تعرفهم جيداً لقد كان العمدة ثم تركته خلفها لتجده أمامها " الشيخ محمد " ثم دهشان ثم الخفير " علي " ثم الصاغ علي الخولي ثم ..... وجميعهم تزين رؤوسهم البلطة وبعد مسافة طويلة قطعتها سهي في غابة من الوجوه بدأ بيت العمدة يظهر عن بعد .... بدأت الوجوه تختفي والضحات تندثر ... والبيت يقترب وفجأة ظهر العمدة في الطريق وهو يدنو من سهي بلهفة وهو يقول بصوته المميز :

– ابنتي ... هل أصابك مكروه لقد كنت ...

ولكن سهي توقفت فجأة وتراجعت خطوتين للخلف وهي تدقق جيداً في الواقف أمامها فلن تلقي بنفسها عليه بسهولة فقد يكون نعيم ... ولكن هذا هو أبيها إن كل ما به يقول ذلك تلك العصا لا يوجد منها اثنتان ذلك الجلباب تلك العباءة لقد اشترتها سهي له بنفسها ... طربوشه الأحمر الذي يتوسط رأسه .. إنه هو . ثم أين البلطة إنها لا تكسو رأسه نعم إنه أبي.

العمدة وهو يقترب منها:

– لا تخافي يا ابنتي لقد عرفنا كل شئ عن ذلك الجني المتحول ولن يليح الصباح وهو بيننا.

عقلها قال أنه أبيها كذلك قلبها . أقتربت سهي في حذر من أبيها والدموع تغرق عينيها ثم هوت بجسدها بين ذراعيه ... احتضن العمدة ابنته بشدة وظل يربت علي كتفها بحنان وهو يقول:

– لا تخشي شيئا يا ابنتي لا تخشي شيئاً.

بينما دفنت سهي وجهها في صدر أبيها وراحت تبكي بشدة والأب يهدى من روعها ويحاول أن يرفع رأسها لأعلي ولكنها ظلت دافنة وجهها في صدر أبيها حتى إنها لم تلحظ عندما سقط الطربوش من أعلي رأس أبيها أن هناك فجوة كبيرة في منتصف رأس العمدة ... فجوة الغالب أن بلطة قد أحدثتها !! وسهي لا تزال تبكي في أحضان أبيها .

****

اتخذت الاحتياطات في القرية جيدا تجمعت كل أسرة في إحدى الغرف حول " لمبة جاز" تعكس الظلال جيدا . وراح الجميع يتطلع لأخيه في قلق فقد يكون نعيم ولكن نظرة الي ظله تطمئنه قليلاً أما رجال الشرطة ومعهم بعض المتطوعين من شباب القرية فقد حملوا المشاعل وراحوا يجوبون طرقات القرية بقيادة الصاغ علي الخولي والشيخ محمد بينما جلس العمدة في إحدى الحجرات بدار شيخ الخفر في ضوء خافت شارد الذهن وقد أيقن تماماً ان مصير ابنته الآن جثة منزوعة القلب وشيخ الخفر الي جواره يهون عليه قائلاً :

– لا تقلق ... ما هي إلا بضع لحظات وتكون سهي هانم إلي جوارك .

العمدة :

– أتمنى ذلك وإن كنت أستبعده .

شيخ الخفر وهو يزيد من فاعلية ضوء لمبة الجاز :

– لما ؟

العمدة :

– لقد خدعنا ذلك السفاح .. خدع القرية كلها . قتل الطبيب الحقيقي واستعار هيئة طبيب وراح يطيح بسكان القرية المساكين وفي النهاية زوجته لأبنتي مكافأة له.

صمت شيخ الخفر فاستطرد العمدة:

– ويعلم الله وحده أيزال قلبها ينبض أم ....

فقاطعه شيخ الخفر :

– استبشر خيرا إن شاء الله . سأدعو الخفير " علي " وأمره أن يذهب ليستطلع لنا الأمر بصوت مرتفع قال شيخ الخفر لرجل من رجاله يقف بخارج الحجرة :

– غفير " سويلم " .... غفير " سويلم "

اندفع سويلم لداخل الحجرة مسرعاً فبادرة شيخ الخفر قائلاً :

– استدعي لنا الخفير " علي " من الخارج .

بمجرد خروج سويلم دلف الخفير " علي " قائلاً ببرود وكأن لم يحدث شئ بالقرية:

– أمرك ياحضرة العمدة .

شيخ الخفر :

– اذهب واستطلع لنا الأخبار وعد مسرعاً .

– حاضر .

شيخ الخفر بحدة :

– هل سمعتني ؟ عد مسرعا.

– حاضر .

وقبل أن ينصرف "علي " انتبه العمدة لشئ ما فقال لخفيره بحدة:

– خفير علي .. أين بندقيتك ؟!

علي بارتباك :

– أمام الدار .

العمدة صارخاً :

– وماذا تفعل أمام الدار؟ أتقوم بالحراسة وحدها .. أم انك بلا فائدة.

وهنا قام العمدة بهدوء وحمل " لمبة الجاز " وبمجرد أن اقترب للأمام نحو " علي " حتى ارتسم خلف هذا الأخير ظله علي الجدار .... ظل الكلب.

– أيها الخفر ... أيها الخفر.

بصوت مدوى صرخ العمدة أما شيخ الخفر فقد جحظت عيناه في ذهول واتسع فمه عن أخره من هول المشهد وهنا تطلع الخفير " علي " إلي الخلف فرأى ظله علي الجدار فأسرع منطلقاً لخراج الحجرة وخلفه العمدة بعدما وضع اللمبة جانباً وشيخ الخفر والعديد من الخفر ومعهم الخفير " علي " الحقيقي وعندما خرج الخفير " علي " المزيف من باب الدار الكبير فإذا به يتخذ صورة " نعيم " وهو يجرى مسرعا باتجاه الظلام .... جرى العمدة ورجاله في تعثر شديد بضع خطوات قليلة انطلقت خلالها عدة طلقات نارية من الخفر وسط الظلام الحالك قبل ان توقف العمدة قائلاً:

– خفير " علي " اذهب إلي الدار وأحضر لنا المصباح الكبير لينير لنا الطريق.

رجع الخفير " علي " مسرعاً لبيت العمدة بينما أكمل العمدة ورفاقه الطريق سائرون بخطوات مسرعة في الاتجاه الذي انطلق فيه نعيم قبل ان يختفي عن الانظار وسط الظلام الشديد .

كانت انفاس الجميع تتلاحق بشدة وهم يسيرون بعصبية يتحسسون الطريق المظلم عندما لمحوا من يقترب منهم توقف الجميع بغتة وحدق العمدة محاولاً معرفة المقبل عليهم دون جدوى. كان القادم نحوهم يبدو كشبح وسط الظلمات وهو يقترب منهم بخطوات حادة سريعة لذا لم يكن أمام العمدة سوى الانتظار حتى يقترب الشبخ أكثر وتتضح ملامحه ومع كل خطوة كان قلب العمدة يخفق بشدة بينما إلتزم الخفر الصمت التام وخطوات الشبح تقترب رويدا رويدا كانت ملامحه

تحاول ان تقترب من الظهور . مرت اللحظات السابقة كسنوات والعمدة يحدق بشدة ضاغطا جفنية ولكن دون جدوي وأخيراً ظهر ذلك المقترب إنه .. إنه الصاغ " علي الخولي ".

كان الصاغ علي الخولي يقترب من العمدة حين أوقفه هذا الاخير بحدة متسائلا وهو يعرف إجابة سؤاله:

– من أنت ؟

توقف الصاغ " علي " قائلاً :

– أنا الصاغ " علي الخولي".

– ولماذا تسير منفرداً ؟! أين رجالك؟!

– لقد كلفتهم بمهام عديدة وكل منهم يؤدى دوره.

ثم تردد الصاغ علي الخولي للحظات قبل ان يقول للعمدة :

– ولكن ما الذي دفعك للخروج من منزلك ومعك الخفر في الظلام الحالك؟

شيخ الخفر بسرعة:

– لقد كنا نطارد الدكتور " نعيم "

العمدة :

– لقد حدث شئ مرعب فعندما كنا نتحدث مع الخفير "علي " ...

وقبل ان يتم العمدة حديثة فإذا بعدد من حراس الشرطة كانوا يقتربون من الجمع . إلتفت العمدة نحوهم ولكن ... من هذا بل ما هذا . كان الصاغ علي الخولي يتزعم رجال الشرطة القادمين في ذات اللحظة التي كان العمدة يتحدث فيها مع الصاغ علي الخولي!!

جحظت عين العمدة بذهول وتدلي فكه السفلي ببلاهة ليس أشد منها إلا بلاهة شيخ الخفر ورجاله وهم يتطلعون نحو الصاغ " علي الخولي " الواقف أمامهم منفردا والي الصاغ " علي الخولي " الذي يقف الي جوار افراد الشرطة.

كان هذا هو الصاغ " علي الخولي " نعم هو .. كل ما فيه يقول أنه هو .. صرامة ملامحه .. تعقيدة حاجبيه.. شاربه الخفيف حتى الشامة علي خده الأيسر تقول أنه هو .. ولكن الآخر كان هو أيضا الصاغ علي الخولي كل ما فيه يقول أنه هو صرامة ملامحه .. تعقيدة حاجبيه .. شاربه الخفيف حتى الشامة علي خده الأيسر تقول أنه هو.

تطلع العمدة لكلا الرجلين قبل أن يقول وهو يشير لهما بعصاه :

– أحدكما مزيف ... أحدكما سفاح ... أحدكما الدكتور نعيم .. من منكما القاتل؟

بالطبع لم يقل أحدهما أنا نعيم أيها العمدة هيا أقتلني ولكن تبادل الرجلان الإتهامات :

– أنا الصاغ علي أيها العمدة .

– بل أنا الصاغ علي الخولي أيها العمدة .

– لا تصدقه إنه كاذب .

– بل هو الكاذب ذلك السفاح القاتل .

كان العمدة ورجاله يستمعون للحوار الحاد الراقي من الصاغ " علي الخولي " الواقف منفرداً والصاغ علي الخولي الواقف امام رجاله أيهما نصدق وأيهما نكذب إنهما نسخة واحدة ... نسخة واحدة قلبا وقالباً.

الصاغ " علي الخولي " الواقف منفرداً :

– إنه هو ... إنه هو الدكتور " نعيم " إيها الرجال أطلقوا الرصاص عليه .

والآخر يرد :

– بل هو الدكتور نعيم لا تنخدعوا وأطلقوا الرصاص عليه.

– يا عسكري حسين .. ياعسكري جمعة أطلقوا الرصاص هذا " أمر ميرى " هيا نفذوا الأمر.

ولكن الذهول والدهشة أصابتا الجميع بالشلل .....

العمدة بهدوء وقد تمالك جزء من أعصابه :

– فليكف الجميع.

ساد الصمت لحظة قبل أن يستطرد العمدة :

– أيها الصاغ " علي " .. لماذا كنت تسير منفرداً أليس من المفروض أن يسير خلفك رجال حراستك ؟

– نعم ولكننى أمرت كل فرد بمهمة مستقلة ومنفردة نظرا لقلة عددنا .

العمدة بهدوء :

– ممم .. حسناً .... حسناً هل حدث ذلك أيها الرجال؟

تطلع الحرس بعضهم البعض ولم ينطق أياً منهم بكلمة واحدة فكرر العمدة سؤاله فكانت إجابتهم الصمت أيضاً والصاغ علي الخولي الواقف إلي جوارهم يقول:

– لو استطعت أن تخدع القرية كلها فإنك لن تستطيع أن تخدعنى .

ثم إلتفت العمدة بحده نحو الرجال وقال صارخا بحدة:

– أليس كذلك أيها الرجال ؟ ... أنه لا يستطيع أن يخدعنى ولا يخدعكم .

ارتبك الرجال وفاق بعضهم من غفلته علي صرخة قائدهم فقالوا تلقائياً :

– نعم ... نعم .

وهنا ابتسم هذا الصاغ ابتسامة ظفر وتطلع للعمدة بهدوء قائلاً :

– أرأيت أيها العمدة إنهم رجال أكفاء .

رمق العمدة الضابط المنفرد الذي كان يحاول استخراج بضع كلمات ضاعت في حلقة ثم إلتفت العمدة نحو الخفر وقال بحدة:

– أيها الخفر .. صوبوا بنادقكم نحو هذا الصاغ المنفرد .. إنه هو نعيم .

الصاغ المنفرد متوسلاً :

– لا ايها العمدة .... لا تقتلني .

العمدة :

– القتل هو أقل أجر يحصل عليه سفاح مثلك .

– ولكن .... ولكن ... إن ... إنـ ....

وهنا سمع الجميع صوت الخفير " علي " الذي كان يأتي مسرعا من بيت العمدة حاملاً مصباح كيروسين ضخماً باعثاً ضوء شديد عن بعد وهو يصيح:

– ها قد أحضرته ياحضرة العمدة ... لقد احضرت المصباح

إلتفت الجميع نحو الخفير "علي" الذي كان يقترب بسرعة ولم ينتبه أحداً إلا عندما انطلق الصاغ " علي الخولي" الواقف أمام افراد الشرطة مسرعاً وسط الظلمات قبل أن يقترب الضوء . والصاغ " علي الخولي " الذي كان يقف منفرداً يصيح كالمجنون.

– أرأيتم أيها الأغبياء إنه هو .. هو نعيم كنتم ستقتلونني اللعنه عليكم جميعاً .

أوشك ان يجهش في البكاء ولكن الوقت لا يسمح بذلك وتلقائيا عدّل الخفر بنادقهم نحو نعيم الذي أسرع كالبرق وسط الظلام والطلقات تتقاذف عشوائيا في أشلاء الظلام لقد فر نعيم مرة أخرى ... لقد فر كالعادة اقترب الخفير " علي " بالمصباح فانضم للجمع الذين ساروا مقتفين اثر " نعيم " كان المصباح يوضح آثار أقدامه جلياً .. لقد كان يعدو ويعدو آثار أقدامه تدل علي ذلك خطوة من قدمه تليها خطوة أخرى ثم أخرى وأخرى وخطوات أخرى ولكن في مكان ما اختلفت خطواته وتبدلت ولم تعد خطوات قدم بشرية بل تحولت إلي آثار أقدام كلب .. كلبكان من الواضح أنه يعدو ... قبل ان تختفي هذه الآثار تماماً وبينما يسير هذا الحشد الصاغ " علي " والعمدة وشيخ الخفر وبعض الرجال فإذا ببعض إن لم يكن كلرجال القرية يقتربون في ثورة عارمة حاملين المشاعل النارية ثم ينضمون الي ذلك الحشد ويسير الجميع في تحالف (حكومة وشعباً) هو الأول من نوعه في القرية منذ أن دنسها ذلك الطبيب ... كانت المشاعل تعطي ضياءاً وهاجاً ليس أشد منه إلا قلوب الفلاحين المتحمسين للأخذ بالثأر وهم يسيرون بحماس وعزيمة شديدة كان العمدة والصاغ علي الخولي وشيخ الخفر والشيخ محمد والخفير

" علي " يسيرون في المقدمة بنفس الحماس بنفس العزيمة .. خلفهم رجال الشرطة والخفر يليهم فلاحين القرية والرغبة في الانتقام .. إنها ليلة إغتيال الشيطان وفي مؤخرة كل هذا الجمع كان يسير أحد بسطاء القرية منضماً الي الثوار حاملاً احد المشاعل النارية ويسير بتباطؤ شديد وقد ارتسم ظله في الخلف ذلك الظل الذي ألفناه ظل الكلب

سار كثيراً خلف الرجال دون أن يلحظ أحد أي شئ.

كانت كتلة الرجال بمشاعلهم النارية أشبه بنيزك يندفع للأمام بتوهج شديد وهم يجوبون مكان ما في القرية أقرب الظن أن " نعيم " قريب منه عندما لمح الرجال جسد بشري ملقي علي الأرض فاندفعوا نحوه مسرعين وفي هذه اللحظة المناسبة أطفأ الرجل الذي كان يسير في المؤخرة مشعله وانسحب من الجمع بهدوء دون أن يشعر به أحداً ... إلتف الرجال حول الجسد الذي فارقته الروح والقلب وسقط العمدة علي ركبتيه يبكي بشدة ابنته سهي وقد ضمها الي صدره والرجال يهوّنون عليه:

– ابني وابنتي في عام واحد ... ابني وابنتي خلال أيام قلائل .

بكي العمدة بشدة كذلك بعض رجال القرية لم يستطيعوا إيقاف نزيف الدمع من أعينهم وهم يرون سهي غارقة في دماءها :

ربت الصاغ " علي الخولي " علي كتف العمدة بعطف في حين نزع الشيخ محمد عباءته وقام بتغطية جثمان سهي وعاون العمدة علي الوقوف بمساعدة شيخ الخفر .. وقف العمدة بصعوبة خائر القوى.. وبكلمات خرجت بصعوبة قال الصاغ " عليالخولي " :

– البقاء لله أيها العمدة .

ازداد بكاء العمدة مع إشارة الصاغ " علي الخولي " لرجلين من الخفر بحمل سهي فوقف الخفيران إلي جوار بعضهما كتفاً في كتف وحملا الضحية ثم سارا نحو بيت العمدة وأمامهما سار الخفير علي حاملاً لهما المصباح وبتثاقل شديد تبعهم العمدة متكئاً علي عصاه .. أراد الحشد الكبير الذهاب خلف العمدة ولكنه قال بكلمات ممزوجة بالبكاء.

– دعوني اذهب وحدى مع ابنتي ولتكملوا أنتم مهمتكم .

الشيخ محمد بهدوء:

– لا نستطيع ان نتركك في محنتك هذه وحدك يجب ان نساعدك و .....

قاطعه العمدة قائلاً:

– مساعدتكم لي هي أن تأتوني " بنعيم " كي أنتزع قلبه كما فعل بأبنائي.

ثم بحدة صاح العمدة وقد تمالك نفسه:

– أيها الرجال معكم الصاغ " علي الخولي " قائدكم . هل تستطيعون أن تأتونني بنعيم قبل بزوغ الفجر.

صمت الرجال للحظات فواصل العمدة بحماس:

– هل تستطيعون الأخذ بثأر أبناء قريتكم ؟ إن كنتم لا تستطيعون أخبروني .

وهنا تعالت صيحات الرجال المؤيدة وإلتهب حماسهم واشتدت عزيمتهم وهم يرفعون المشاعل لأعلي في تحدي وعناد.

شيخ الخفر للصاغ " علي " :

– أيها الصاغ سأصطحب العمدة لداره وعليك أن تقود الرجال في مهمتكم هذه
– حسناً . فالمعركة دخلت في لحظاتها الحاسمة.
العمدة وهو يستدير :
– فليوفقكم الله
اتجه العمدة وشيخ الخفر نحو دار الأول بينما واصل الباقون طريقهم والغضب يعتصر قلوبهم .
****

لا بد من الانتقام من الكلاب . . لابد من الإنتقام من لصوص القلوب .

****

كانت المشاعل قد توهجت مع ارتفاع صيحات الغضب والاستنكار وأصبحت أقدامالرجال تدب الأرض بعنف وكأنهم فرقة عسكرية في مهمة انتحارية.....
توقف الصاغ " علي الخولي " واستدار نحو الرجال الذين توقفوا علي الفور مصغين لما سيقال :
– سنقوم بعمل مسح شامل لكل أركان القرية ولسوف نبدأ من هذا الاتجاه.
قال الصاغ جملته وهو يشير نحو أحد اركانالقرية فرد الشيخ محمد قائلاً :
– تقصد من ناحية الطاحونة المهجورة.
– نعم .. فمن الواضح أن سهي كانت قادمة من ناحية الطاحونة قبل أن تُقتل .
ونحو الطاحونة كانت المشاعل النارية تتجه بسرعة شديدة ... قام الرجال بالاقتراب من الطاحونة .. إلتفوا حولها .. أقتحموها لا يوجد شئ بداخلها .. اذن فلنتركها ونبحث في مكان آخر .. ابتعد الرجال عن الطاحونة وراحوا يتعسسون طرقات القرية ونواحيها غير مبالين بالصقيع الذي ازداد مع ازدياد توهج النيران والأدخنة التي كانت تتصاعد في سماء القرية مع خروج بخار الماء من أفواه الرجال في كثافة .. ولا أثر للسفاح ...
في طرقات القرية الصغيرة في الاماكن المتطرفة .. عند الساقية المهجورة كان الرجال يجوبون كل موضعقدم في القرية ولم يعد أمامهم الا جزء محود من القرية .. وبينما الحشد يواصل مسيرته اذ بالصاغ " علي الخولي " يلمح وجود شئ ما عن بعد ملقي علي الارض بل شيئين ولكن الرؤية لا تكفي لذا فقد اندفع وخلفه الرجال نحو الهدف الذي جعل قلب الشيخ محمد يخفق مستشعرا الخطر وهو يقول :
– استر يارب
إلتف الرجال حاملين مشاعلهم حول الجثتين المستلقيتين ارضا هذا ما شعر به الشيخ محمد ... وهذا ما لم يكن الرجال يتمنوه ... العمدة وشيخ الخفر مرة واحدة منزوعان القلب ... ساد الصمت للحظات طويلة بين الرجال بعدما أغمض أحد الرجال أعين القتيلين ونطق الشهادتين

في خشوع شديد ... ولا إراديا تساقطت الدموع من العيون ... ذلك العمدة الذي حكم القرية لسنوات طويلة بكل حكمة وعدل وطيبة قلب ... إن سكان القرى المجاورة يقصُّون العديد من الأفعال المشينة والجرائم التي يرتكبونها العمد في القرى الأخري ... إن العمدة في كل قرية رمز من رموز الطغيان والاستبداد ولكن عمدتنا هذا لم يكن كذلك لقد كان نعمة من نعم السماء علي هذه القرية البسيطة ولم يكن يستحق أبداً أن تكون نهايته هكذا جثة منزوعة القلب في الطريق ... لقد كان معنا منذ لحظات يتحدث معنا .. فهل يد هذاالسفاح طويلة الي هذا الحد تنزع أي قلب وفي أي لحظة .. وقبل ان يتسلل البرود الي حماس الرجال قال أحد رجال القرية بصوت جهوري:

– ايها الرجال لقد كان أخر طلب للعمدة في حياته هو أن نحضر له قلب نعيم .. ولقد مات العمدة وما زال نعيم حياً . هيا فلنأتي بقلب ذلك السفاح.

تعالت صيحات الرجال مرة أخرى قبل أن يقول الصاغ علي الخولي:

– أيها الرجال عندما ينتزع نعيم قلبا فهو في الغالب يذهب به الي الوحدة الصحية ليضعه في مكان ما ... وها هما قلبين طازجين قد انتزعهما منذ لحظات .. إنه في أغلب الظن موجود الآن بالوحدة الصحية.. فلنتجه اليها مرة اخرى .

****

كان كلافين قد انتهي من وضع احد القلوب بداخل اسطوانة زجاجية ثم شرع في وضع القلب الثاني في أسطوانة أخرى عندما سمع صوت طرقات شديدة تتوالي علي باب الوحدة ... انتفض كلافين ثم نظر نحو الباب وراحت أنفه تتشمم شئ ما حتى عرف من بالخارج فقام مسرعاً وفتح الباب فإذ بدهشان ذلك المساعد البسيط يندفع لداخل الوحدة وهو يقول بلهفة وقلق شديدين:

– سيدى دكتور " نعيم " لقد أصاب الجنون رجال قريتنا جميعا إنهم لا يزالون يظنون إنك القاتل إنهم مندفعون نحو الوحدة للفتك بك أولئك الأغبياء لا يعرفون مثلي أنك برئ . هيا يا سيدى اهرب اهرب .. إنني أرجو ألا يصيبك سوء ... هيا . أهرب يا سيدي.

ارتسمتابتسامة خبيثة علي شفتي كلافين ودهشان يواصل نصائحه بلهفة :

– هيا إنهم عي مقربة منا ... تطلع بنفسك الي الخارج .. تطلع الي مشاعلهم المتوهجة إنها تندفع نحونا بسرعة البرق . أهرب يا سيدي هيا . هيا .

وكالبرق حقاً كان الرجال يندفعون نحو الوحدة الصحية.. والمسكين لا يزال يواصل نصائحه حتى يهرب سيده والرجال يقتربون وكلافين يجلس بداخل الوحدة . أمتار قليلة ويقتحم الرجال الوحدة وعندئذ لن يكون هناك شافع .. ولسبب ما أوقف دهشان نصائحهوقام كلافين واتجه نحو باب الوحدة وتطلع الي الخارج ورأي اندفاع الرجال بمشاعلهم النارية كنيزك ينطلق بسرعة في السماء ثوان معدودات وسيكونون هنا لقد انتهي معظم الوقت.

****

كانت الوحدة تقترب وتقترب والرجال يقتربون ومع اقترابهم كانت أصوات صيحاتهم تتعالي ... ثانية واحدة تمر بعدها تأتي اللحظة الحاسمة ... وجاءت اللحظة واقتحم الرجال الوحدة الصحية كان الباب مفتوحا وكان أول من دخلها الصاغ علي الخولي الذي راح يلوح بفوهة مسدسه في جميع الاتجاهات حتى يكون مستعدا اذا ما حدث هجوم مفاجئ من كلافين وخلفه عددا من رجاله أما معظم رجال القرية فقد قاموا بحصار الوحدة ...

وبحذر شديد اقترب الصاغ علي الخولي نحو الباب الذي يؤدي الي غرفة ما وهي الغرفة الخاصة بكلافين وبركلة قوية بقدم الصاغ " علي " فتح الباب وسرعان ما تسلل ضوء المشاعل الي داخل الحجرة ليكشف عن خلوها من الأفراد وإن كانت هناك جثة .. جثة دهشان سابحة في بركة من الدماء والي جانبها كان قلبه ملقي أرضاً فالص لم يسعفه الوقت ليضعه في احدى الاسطوانات الزجاجية .. وفي أحد الأركان كانت هناك بعضاً من الأجهزة الصغيرة الغريبة الشكل بالإضافة الي بعض الخرائط المكتوب عليها عبارات بلغات ورموز غير أرضية والي جوار تلك الأشياء كان هناك العديد من الاسطوانات الزجاجية التي تتلوى بداخلها العديد من الأنابيب الدقيقة والمتناهية الصغر جميعها خالية من القلوب بإستثناء اسطوانتين كانتا تحملان قلبين ينبضان بشكل طبيعي جدا وكأنهما لا يزالا بداخل أجسادهما .. ظل الصاغ علي الخولي يفتش وينقب في تلك الأشياء وقد ظهرت علي وجهة ملامح الدهشة الشديدة لم يفق من دهشته إلا علي صوت الشيخ محمد وهو يقول:

– لقد بحثنا في كل مكان بالقرية ولم نعثر عليه ... أخر تلك الأماكن كانت الوحدة الصحية وها هي خاوية يبدو أن الإمساك بالسفاح قد أصبح بعيد المنال .

الصاغ علي في يأس :

– كان عندى أمل شديد في أن نجده هنا ولكن من الواضح أنه قد فر وبكل سهولة .

****

وعلي الجانب الآخر من الترعة كان هناك كلب أسود ضخم يعدو مبتعداً بعد فترة قليلة مكثها بالقرية أوقع العديد من سكانها ضحايا له.

****

كان يسير في خطي سريعة حادة ثابتة وعندما وصل الي قرية " كوزالي " وهي احدى قرى مدينة " أريكا "بدولة " شيلي" علي حدود دولة "بيرو" توقف للحظات ارتسمت علي شفتيه خلالها ابتسامة باردة ثم واصل سيره لداخل القرية في صمت قبل أن يستوقفه شخص ما ناداه من الخلف قائلاً :

– أنت أيها الرجل الغريب .... إلي أين تذهب ؟

فاستدار في برود وتطلع للرجل للحظات قبل ان يقول :

– وما شأنك ؟

– إنني أحد سكان تلك القرية الصغيرة وبالطبع أعرف جميع سكانها ... لذا فمن واجبي أن استفسر عن أي غريب يأتي لقريتنا ... هيا أخبرني من أنت؟

– أنا الطبيب الجديد الذي ارسل الي قريتكم من قبل المسئولين .

تهلل وجه الرجل وقال في نشوة :

– عذرا يا سيدى عذرا. لقد انتظرناك طويلاً وأخيراً جئت لقريتنا .. إنني أرحب بك وأرجو أن تقبل اعتذاري.

ببرود شديد :

– حسناً أقبله .

– شكراً لك يا سيدى وقلبي معك.

– سيكون معي.

قال الطبيب عبارته الأخيرة ثم واصل سيره لداخل القرية .....

تمت بحمد الله وتوفيقه